

رحلة مغربي الى حضرموت

عام ٨٦٥ هـ - ١٤٦٠ م

تقديم وتعليق
د. عبدالهادي التـازي
جامعة محمد الخامس ـ المغرب

كان فيمن عرفنا من الرحالة المغاربة الذين كتبوا عن رحلتهم الى اليمن الرحالة الذي انتقل من مدينة فاس الى حضرموت في نهاية القرن العاشر واوائل القرن الحادي عشر الهجري ، أي القرن السادس عشر الميلادي ، في نفس الوقت تقريباً الذي توسط فيه أحمد المنصور الذهبي لابن العقاد المكي لدى خاقان الترك حتى يعينه هذا قاضياً على اليمن(١)..

ويتعلق الأمر بالشيخ يوسف بن عابد الادريسي الحسني الذي سجل حديث رحلته في كتاب أملاه على بعض مريديه ..

وقد كان في اوائل من قدم هذه المخطوطة للقراء زميلنا العزيز الاستاذ علي سالم سعيد بكير الأمين الحالي لمكتبة الاحقاف للمخطوطات بمدينة تَريم بحضرموت(٢) جنوب الربع الخالي من الجزيرة العربية .

وقد كان فيما رواه الاستاذ بَكير ان ابن عابد هذا من مواليد منطقة أنكاد شرقي المغرب سنة خمس وستين وتسعمائة هجرية ١٥٥٨ م وانه توجه الى فاس لطلب العلم بجامع القرويين ، وسنه عشرون سنة ، حيث سكن بيتاً له في المدرسة المصباحية وهي تقابل أحد أبواب الجامع الاعظم .

ومن المغرب ينتقل ابن عابد الى مصر حيث يلتقي في الأزهر الشريف ـ بعدد من مشاهير العلماء قبل أن يتوجه الى مكة لاداء مناسك الحج وزيارة مدينة الرسول ﷺ ، ومن مرسى جدة قصد حضرموت بواسطة أحد المراكب اليمنية المنتشرة بالمنطقة ، في شهر المحرم سنة اثنتين وتسعين وتسعمائة ، يناير ١٥٨٤ ، حيث أرسى به المركب في بلدة جازان على ساحل البحر الاحمر ، ومن هناك اتجه صحبة قافلة الى أن انتهى الى حضرموت ، الى قرية عيْنات جنوب شرقي مدينة تَريم لياخذ عن الشيخ أبي بكر بن سالم (ت ٩٩٢ - ١٥٨٤) ، وقد لذَّ لابن عابد المقام بحضرموت فتزوج وأنجب وسكن على مقربة من مدينة (سيؤن) في قرية تحمل اسم (مريمة) وبها أدركته الوفاة هناك عام أربع وأربعين وألف ١٦٣٤(٣).

هذا ما يتصل برحلة ابن عابد باختصار ، وقد اهتم ببعضها آخرون(٤).

فهل هذا كل ما تتوفر عليه المكتبة اليمنية من رحلات مغربية ؟ ذاك ما اريد أن اخصص له هذا الحديث ...

أثناء زيارة ودية للزميل العزيز والاستاذ الجليل عبدالله الحِبْشي في بيته بصنعاء (٩ / ٩ / ١٩٩٢) تجاذبنا أطراف الحديث حول المخطوطات التي تتصل بالمغرب ... كان حديثاً متنوعاً يسلمنا جانب منه الى جانب آخر ...

وفي معرض حديثنا عن رحلة يوسف بن عابد سالفة الذكر أهداني صورة منها مع تاليف آخر لابن عابد : (الدرة الفاخرة فيمن لقيته من رجال الاخرة) ، ثم اطلعني الاستاذ على صورة لرحلة اخرى كان تاريخها يسبق تاريخ رحلة ابن عابد باكثر من قرن وربع القرن ... وقد أحسن فيَّ الظن فطلب اليّ أن اشتغل بها على نحو ما فعلت بالمخطوطة اليمنية : (النصوص الظاهرة في اجلاء اليهود الفاجرة) لأحمد بن أبي الرجال(٥)... ملفتاً نظري الى ان لها نسخاً اخرى في مكتبة الأحقاف بمدينة تَريم من حضرموت .

ومنذئذ جعلت (الرحلة) في المحفظة التي تلازمني وأصبحت مشغلتي بل انها كانت في صدر ما جعلني اصمم على أن أرحل من صنعاء الى حضرموت ..!

وهكذا ركبنا الطائرة(٦) صباح السبت يوم ثاني عيد المولد ، ١٢ ايلول ١٩٩٢ من صنعاء الى (الرّيان) مطار (المكلا) التي أصبحت عاصمة محافظة حضرموت ...

ومن (الريان) أخذنا طائرة اخرى في اتجاه الشمال نحو مدينة سِيئُون ... التي اشتهرت بكثرة مساجدها ومعالمها ...

وفي صباح اليوم الموالي وهو (الجمعة) اتجهنا بالسيارة نحو مدينة (تَريم) التاريخية ...

وتعتبر مكتبتها (الاحقاف) منجماً ثرياً بالمخطوطات التي تتناول سائر حقول المعرفة من علوم القرآن والحديث والسيرة النبوية



وعلم الكلام والفقه واصوله وعلم الفرائض والمواريث والتصوف والادب وعلوم اللغة والبيان والنحو والتاريخ وعلم الفلك والمسافة والحساب الى جانب العلوم البحتة وعلوم السياسة ونظام الدواوين ...

وهناك وجدنا انفسنا مع رجال علم وفضل يحيطون بنا ، وان المرء ليشعر بأنهم يرغبون في تقديم المساعدة اليه بكل ما يملكونه ...

كانت مناسبة لتبادل الحديث مع السيدين الفاضلين : حسين أحمد عبدالله الكاف ، والسيد عبدالقادر بن سالم ابن شهاب ، وكلاهما يعمل مساعداً لمحافظ المكتبة الاستاذ الجليل علي سالم سعيد بكير الذي لم يلبث أن عاد من مدينة سيئون على دراجته النارية ..

جولة ممتعة في سجلات المخطوطات التي تحتضنها (مكتبة الاحقاف) هذه ... وقد كان عليَّ أن اركز بحثي على المخطوطات التي تتصل بالمغرب ومنها « رحلة المغربي الى حضرموت » التي تمت قبل رحلة ابن عابد بنحو سبع وعشرين ومائة سنة على ما أسلفنا ...

وقد وجدت فعلًا مخطوطة ثانية للرحلة بعنوان : « هذه رحلة المغربي الذي خرج من بلده لزيارة بلد تَرِيم » ، وهي تحمل رقم ٢٨٨٣ وقد كان الفراغ من كتابتها صباح الجمعة ١٤ ربيع الثاني عام ١٣٣٧ - (١٧ يناير ١٩١٩) بقلم شيخ بن عبدالله بن سالم الشري ..

وقد كانت المخطوطة التي أهداها اليّ الزميل الحِبْشي تحمل عنواناً هكذا : (بذل النحلة لمن يحب الناصحين الكرام الأجلة ، بذكر ما أودعه المغربي من شمائل تَرِيم وأهلها في الرحلة) .

وإذا كانت مخطوطة (تَرِيم) لم تشر للأصل الذي استقت منه النص فان مخطوطة الحبشي تنص في الصفحة الأولى على ان المخطوطة كانت نقلًا عن الصفحات الاخيرة لكتاب « صلة الأهل ... » للشيخ محمد بن عوض بافضل المتوفى بعد سنة ١٣٦٩ - ١٩٥٠[٧].

وقد أسلمني هذا التعليق الى مخطوطة (صلة الأهل بتدوين مناقب آل أبي فضل) التي كان لها أيضاً إسم ثان : جمع الشمل ، للمتفرق من مناقب آل أبي فضل ، نسبة الى العارف بالله فضل بن عبدالله بافضل .

وهنا وقفت في الصفحة ٤٨٨ من المخطوط على تمهيد لذكر الرحلة جاء فيه ما يلي :-

(... ومن فضلاء بني فضل وأتقيائهم رجل كثيرٌ فضله وعلمه ، مجهول إسمه ، صحب الإمام العارف بالله محمد بن أحمد أحد كبار العلويين ورافقه في ذهابه الى الحج وإيابه الى مدينة تريم ، وحين قفلا من الحج رافقهما الى بلدهما أحد علماء المغرب ، فدوّن رحلة لطيفة ذكر فيها بعض ما رآه من حالهما في السفر ، ثم ما شاهده بتريم من أحوال سكانها العلويين ... ومن جاورهم من الصالحين فاستحسنت إيرادها برمتها لنفاستها وعظم فائدتها ، ولدلالتها على ما يخفى على الكثير من الناس ، من صفات اولئك الاكياس ، وجعلتها لهذا المؤلف مسك الختام وبدر التمام ، وتاريخ هذه الرحلة كان سنة خمس وستين وثمانمائة في السنة التي توفى فيها سلطان الملا ، واكليل تاج العلا سيدنا عبدالله بن أبي بكر العيدروس[٨]، ويحتمل أن يكون الشيخ جمال الدين محمد ابن الفقيه عبدالله بن فضل بالحاج[٩] هو الذي حج مع السيد محمد بن أحمد نظراً الى اتفاق التاريخ ، ولانه حج في ذلك الوقت ... وعلى كل حال فالقصد نشر المحاسن المطوية ، وإظهار القضايا الخفية لينتفع بها الموفقون من البرية ، وقد قرئت على الحبيب الإمام علي ابن محمد الحِبْشي[١٠]، فاغتبط بها وذاكر عليها ، وقرأت مراراً كذلك على سيدي الإمام أحمد بن الحسن العطاس (ت ١٣٣٤ - ١٩١٥)[١١] فأيدها وتكلم في شانها ، وأوصى بالتمسك بما فيها ، ومن كلامه رضي الله عنه قوله : « لاحت لي بارقة في شأن رحلة المغربي الى تريم ، وقد وقع فيها بعض تحريف من حيثية الأسماء والمعرفة لا من حيث الوقوع . وتخيل لي المجلس كله ودخوله على السيد الى آخرها ... وأهل الباطن شالين القصبة معهم يجيئون بخبز من المخبا والمخبا ، والذي ما يوافق كشفهم الصريح المطلق ما يقبلونه ، ولو اجتمعوا (كذا) عليه جميع القائلين » . قلت : وفي كلامه هذا أبلغ ردع لمن أنكرها ولم يثق بصحة نقلها ، (اذا قالت حذام فصدقوها)[١٢] ، خصوصاً والمتكلم على نور من ربه وناظر بعين قلبه انتهى . وهذه هي الرحلة المشار اليها :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذه رحلتي الى مدينة تَرِيم ... وبعد أن يورد نصها كاملًا يختم المغربي حديثه بالإخبار بان والده دوّن رحلته أيضاً الى حضرموت وانه كان يحيل عليها إلا أن الولد - بعد وفاة والده - فتش عنها بين الكتب فلم يظفر بها ...

وبالرجوع الى مخطوطة صنعاء ، وجدت انها تقتبس من كتاب (صلة الأهل) وتجعل لها مقدمة مقتبسة من التمهيد السالف الذكر ، فجاءت المقدمة على هذا النحو :

هذه رحلة رجل صالح مغربي رحل بعد الحج والزيارة من بندر جدة في صحبة سيد شريف من أكابر السادة العلويين اسمه محمد بن أحمد ، وشيخ جليل من صلحاء آل أبي فضل ، عام خمسة وستين وثمانمائة وهو العام الذي توفي فيه سيدنا الإمام سلطان الملا عبدالله بن أبي بكر العيدروس ، وقد قرئت على سيدنا الحبيب الإمام علي بن محمد ابن حسين الحبشي فاغتبط بها وذاكر عليها ، وقرئت مراراً عديدة على الحبيب الإمام أحمد بن حسين بن عبدالله العطاس فأيدها وتكلم في شانها وأوصى بالتمسك بما فيها ، وقال : لاحت لي بارقة في شأن رحلة المغربي الى تريم ، وقد وقع فيها بعض تحريف من حيثية الأسماء والمعرفة لا من حيث الوقوع الى آخر ما ورد في النص السابق ... انتهى كلامه رضي الله عنه . قال : وهذا أوان الشروع في الرحلة ، قال الشيخ المغربي رحمه الله :

بسم الله الرحمن الرحيم : هذه رحلتي الى مدينة تَرِيم ...

* * *

وقد كان مما أثار انتباهي في ذلك (التمهيد) من كتاب (صلة

الاهل) ما ورد في شهادة الإمام أحمد بن حسن بن عبدالله العطاس (ت ١٣٣٤ - ١٩١٦) حول التحريف المرتكب في الاسماء من لدن الرحالة المغربي ... وخاصة ما تبع ذلك (التمهيد) من (تعليق) للشيخ محمد عوض بافضل يشير فيه الى وجود من « أنكر الرحلة ولم يثق بصحتها » !! وهنا كانت لي جولة اخرى من البحث حول هذا الموضوع الذي أصبح بالنسبة إليَّ مثيراً وملذاً في ذات الوقت !

في تأليفه بعنوان « أدوار التاريخ الحضرمي » يتعرض الاستاذ محمد بن أحمد بن عمر الشاطري للحالة الاقتصادية في حضرموت أثناء القرن التاسع عندما كانت تحت حكم الدولة الكثيرية الأولى الذي استمر ثلاثة قرون أو تزيد ... فيؤكد - اعتماداً على (رحلة المغربي الى تَريم) ، موضوع حديثنا - انهم أي الحضارمة - في عهد هذه الدولة - كانوا يتوفرون على الاكتفاء الذاتي - وانهم نتيجة لذلك يتمتعون بالاستقلال الاقتصادي الحقيقي[١٣]...

وقد كان يشير بذلك - على ما سنرى - الى ما ورد في ثنايا الرحلة من ان الناس في حضرموت كانوا لا يستوردون غير إبر الخياطة وموسى الحلاقة وكحل العيون ...

يضاف الى هذا ان الاستاذ الشاطري - وهو في معرض الحديث عن الحياة الاجتماعية في المدينة ، وان القوم كانوا فيها مثلًا في السلوك والاستقامة ، والتبتل والقناعة ، أعجبته العبارة التي أجمل فيها تلك المغربي الهوية التي تميزت بها المدينة ، وكانت هذه العبارة : « إنهم أي أهل تَريم بالملائكة أشبه » التي ظل المغربي يرددها والتي نالت من الاستاذ الشاطري حظها في وجدانه[١٤]...

والى هنا كان كل شيء على ما يرام بيد أن الاستاذ الشاطري بعد أن استفاد من النص واستغلّه لاطروحته - أتى بتعليقٍ في هامش تأليفه المذكور - أقول في الهامش - كان يقصد به أن يوثق من جهة نقلّه عن الحالة الاقتصادية والحالة الاجتماعية لكنه في نفس الوقت طرح سؤالًا من شانه أن يضعف اطروحته ...

وهكذا فبعد أن أكد الاستاذ الشاطري وجود رحلةٍ منتشرة بين الناس تسمى (رحلة المغربي) تشتمل على وصف لحضرموت في القرن التاسع تقريباً ... ويشير فيها صاحبها الى الاكتفاء الذاتي والوضع الاجتماعي ، بعد ذلك يطرح هذا السؤال : هل الرحلة المغربية حقيقية أم رواية خيالية ؟ ثم يتولى الشاطري نفسه الجواب ، فيذكر ان الناس اختلفوا ، فمنهم من قال بان الرحلة حقيقية ، وان نصوصها رحلت من المغرب بواسطة أحد الأشراف الادارسة الى حضرموت[١٥]، لكن في الناس - يتابع الشاطري كلامه - من قال : ان واضعها هو السيد حسن بن علوي ابن شهاب وانه جعلها على لسان المغربي ليكون محتواها أدعى لقبولها ! ويضيف الشاطري الى هذا ان الاستاذ محمد بن هاشم[١٦] - رحمه الله - أخبره بان السيد حسن بن علوي ابن شهاب أخبره بأنه هو الذي وضعها !! لكن الشاطري - بالرغم من كل هذا استند الى الرحلة فيما نقله عن الاكتفاء الذاتي ... وعن الوضع الاجتماعي واختتم تعليقه كما ابتدأه ، أي انه يريد أن يجمع بين بعض المعلومات التي تتضمنها الرحلة وبين ما رواه عن ابن هاشم ...!! قال بالحرف : ويدل الغموض والإجمال والمبالغة في بعض الجوانب على انها موضوعة لكن من أحسن ما قال مؤلفها فيها عن السلف الصالح بتَريم أنهم بالملائكة أشبه ...!

وقد دفعني الفضول الى ملاحقة السيد حسن بن علوي ابن شهاب ، فمَن يكون هذا السيد الذي قالوا عنه : انه واضع الرحلة ؟

يحكي عنه أهل تريم انه كان من رجالات العلم ، وانه كان من المدرسين برباطها أي معهدها العلمي الشهير ، قبل أن ينتقل الى سنغافورة ...

وقد أنشأ له هناك في سنغافورة جريدة سماها (الوطن) ، وأنشأ رسالة وجهها الى أهل حضرموت يطالب فيها بتطوير التعليم سماها (نحلة الوطن) فاثارت ضجة كبرى في الأوساط الحضرمية المحافظة وعارضه المشايخ فكتب بعضهم رسالة أسماها : إتحاف أهل القبلة في الرد على صاحب النحلة ... وعلى هذا وقع الرد بتأليف : « الانصاف بين النحلة والاتحاف » ...

قال بعضهم : ولما قرر ابن شهاب أن يعود في الاخير الى وطنه (حضرموت) فكر في طريقةٍ يسترضي بها مواطنيه الحضارمة ، فوضع هذه « الرحلة » ونسبها الى مغربي مجهول قاصداً الى نشر محاسن السابقين ليكسب عطف اللاحقين !! وقد أدركه أجله في تَريم عام ١٣٣٢ - ١٩١٤ .

وقد سالت الاستاذ بكير أمين مكتبة الأحقاف للمخطوطات عما يعتقده فاكتفى بإحالتي على ما قاله هو في حديث له استشهد فيه بما ورد في كتاب (أدوار التاريخ الحضرمي) سالف الذكر ...

ولعل مما بث الشك في بعض الناس ما أورده الزركني في ترجمة ابن شهاب من انه نسب تاليفه (الإنصاف ...) الى أحد الأزهريين[١٧]!

وعلى نحو ما اقترحه عليَّ الاستاذ الحِبْشي في صنعاء ، قال الاستاذ بكير : الآن ونحن مع قاضي مغربي ، فإننا نرجو أن يساعدنا على (تحقيق المناط) حول الموضوع الذي انقسم الناس فيه على فئتين !!... فعلًا كنت اقرأ هذا الخلاف على وجوه زملائي الذين كانوا يتحدثون اليّ !

وان في أبرز ما أطمعني في محاولة الاستجابة الى رغبة زملائي أن « المغربي » الذي دوّن الرحلة المذكورة عام ٨٦٥ - ١٤٦٠ م قام أكثر من مرة بمقارنات ومفارقات في بعض العادات بين المغرب وبين حضرموت ...

لقد أفاد ان والده كان على نصيب من العلم وانه سمع منه ذات يوم أثناء إملاء الدرس أشياء كثيرة عن حضرموت وبخاصة مدينة تَريم ... التي تحتضن عدداً كبيراً من الأشراف العلويين أضفى عليهم والده وصفاً جميلًا وعلق بذهنه فكره مراراً في الرحلة ، فلقد قال الوالد عنهم : « إنهم



بالملائكة أشبه » ، ويظهر ان اغراق الوالد في وصف حضرموت وأهل حضرموت دفع بالولد الى أن يسأل والده : هل ما إذا كان دوّن رحلته تلك ؟ وهو السؤال الذي أجاب عنه الوالد بنعم !

وقد كانت خيبة الولد شديدة عندما لم يعثر على نصوص الرحلة بعد وفاة والده !

وعندما سمحت ظروف الولد بالقيام بمناسك الحج ، قصد مدينة (جدة) ، وهناك أخذ يسأل عن الطريق التي يمكن أن توصله الى حضرموت وقد استفاد من المعلومات التي قدمها له أحد معارف والده .

وانتظر السفينة الذاهبة من ميناء جدة الى ميناء الشِّحر ليأخذ مكانه ضمن الحجاج العائدين الى اليمن ... كان على المركب أن يخترق البحر الاحمر من الشمال الى الجنوب مروراً بميناء (المخا) ليجتاز مضيق باب المندب ثم ليقطع خليج عدن ويقصد ميناء الشِّحر.. القريب من المُكَلّا ...

وهناك أخذ يبحث عن أهل تريم التي كان يسمع بها من والده ... فتعرف على شخصين اثنين كانا مفتاحه للوصول على المدينة كان أولهما أحد أشراف المدينة ، وهو : محمد بن أحمد ... والثاني تلميذه الشيخ بافضل .

وقد ركز « المغربي » اهتمامه على السيدين المذكورين ... وهنا قدم وصفاً دقيقاً للشريف الذي كان ذا تؤدة وسكينة ... إن الحجاج كانوا يتسابقون لخدمته وتقديم القهوة والكعك له في الصباح ... ثم يتناهبون ما يفضل عنه تبركاً به ! وقد استيقظ المغربي ذات ليلة فوقع بصره على الاثنين يتدارسان القرآن ، واستيقظ ثانية ليجد الاثنين على حالهما الأول فاستمر يقظاً يراقبهما حتى طلوع الفجر حيث اذن الشيخ بافضل وأم الشريف بالناس قبل أن يستأنف الاثنان مدارسة القرآن ...

لقد أمضى الركاب سبعة أيام بين ميناء جدة وبين ميناء الشحر ، ومن الغريب انه بالرغم من مرور كل تلك المدة على متن المركب ، فان المغربي لم يجرؤ على تقديم نفسه للسيدين المذكورين اللذين ـ بدورهما ـ لم يكونا فضوليين فيسألا الغريب عن اسمه وأصله ووجهته .!

ولقد لفت نظر المغربي المتاع الذي يحمله الفريقان والذي لم يكن يتجاوز طرداً واحداً كانت الكتب أهم ما في ذلك الطرد الذي كان يحمله الشيخ بافضل على كتفه .!

وتبع « المغربي » السيدين المذكورين حتى وصلا الى بيت في ذلك الميناء ، فدخله الشريف صحبة رفيقه من غير أن يلتفتا معاً الى هذا المغربي !

وقد وقعت عين المغربي على مسجد قريب من البيت فقصده واستراح بصحنه ، فغشيه النوم ... ولما استيقظ لمح الشيخ بافضل فاتجه اليه يسأله عن الشريف الذي كان هناك موجوداً بالمسجد ينتظر صلاة الظهر ... وبعد أداء الفريضة سمع رجلاً يقول للشريف : هيا بنا نعود للبيت ، فعرف ان هذا الرجل هو صاحب البيت ... وهنا سأله أحدهم : متى وصلتم الى الميناء ؟ فأجابه بانه جاء مع مولانا الشريف ومع الشيخ ! فوجهت له الدعوة ليصحبهما الى البيت . فلبى الطلب ، وسره جداً أنه عندما وقعت عليه عينا الشريف تبسم له وقال : أهلاً بصاحبنا في السفر !! وهنا جرؤ المغربي على مخاطبة الشريف بقوله : وسأرافقكم الى تَريم ..! وكانت فرصة أن يحكي المغربي عن رحلة والده وعن أمنيته هو في أن يقف على ما وقف عليه والده ... فأجابه الشريف : تظفرون بما أملتم إن شاء الله ..!

ولما كان في حديث خاص مع الشيخ بافضل أخبره بانه يحج لأول مرة اداءً للفرض ، وهنا سمح « المغربي » لنفسه أن يلقي سؤالاً على بافضل : وهل ان هذه هي حجته الأولى ؟ فأجابه الشيخ بانها ليست حجته الاولى ، وانهم يحجون هذه المرة نيابةً عن غيرهم في مقابلة اجرة تسلموها ، فسأله المغربي عن قدر تلك الاجرة ، فأجابه : بأن الشريف استُؤجر للحج والزيارة بحصة من العملة الرائجة حددها الشيخ بافضل للرحالة المغربي العدد والنوع والوصف ... أما غير الشريف فإنما يتقاضى تقريباً نصف ما يتقاضاه الشريف عدداً ونوعاً ووصفاً على ما سنقرأه في النص ...

لقد أقاموا بميناء الشِّحر أربعة أيام قبل أن يقصدوا مدينة تريم مع قافلة من الجمالة ... وكان عليهم أن يقطعوا اسبوعاً كاملاً قبل أن يصلوا الى محطة بضاحية المدينة حيث بعث الشريف من أخبر أهل تريم بمقدمه ... وهنا توالت وفود الأشراف الذين كانوا يتهافتون عليهم طالبين منهم الدعاء ...

وقبل الوصول الى بيت الشريف اقترح الشيخ بافضل على « المغربي » أن ينزل عنده فأجابه المغربي بأنه يفضل أن ينزل في مسجد قريب من بيت الشريف ... وهنا أرسله صحبة غلام له الى مسجد بني أحمد ...

وفي مسجد بني أحمد هذا أخذ المغربي فكرة عن اهتمامات أهل مدينة تَريم عندما ظلت عينه لا تقع إلا على العابدين الذاكرين ... وهنا ذكر ان كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي كان من بين المواد المتناولة ... وهناك تذكر من جديد قولة والده : « إن أهل تَريم بالملائكة أشبه ! » .

وقد كان المغربي يعتقد ان هذه المجالس ستنتهي بصلاة العشاء ، لكنه فوجيء بأن الامور عادت الى ما كانت عليه من دروس وغيرها ... وقد ورد عليه الشيخ بافضل يطلب اليه أن يلتحق ببيت الشريف لتناول ما تيسر ، فأجاب المغربي بانه جاء الى تريم ليمتع نفسه بمثل هذه المشاهد ، فافهمه الشيخ بأن في هؤلاء الناس من لا يعود الى بيته إلا بعد أن يصلي الضحى ..! ودخلا البيت الذي كان يضم بعض الأشراف وهنا حضر الطعام ... الذي كان يتألف من : خبز الذرة مع بعض المرق .

وقد أفهم الشريف ضيفه المغربي بأن الإقامة في تريم لا تصفو إلا

بالقناعة وميسور العيش، كما تحدث اليه عن وجود رجال في تَرِيم يطوون الاشهر لا يذوقون فيها غير الاسودين التمر والماء !!

وبعد أن خرج الجميع استانئنت ـ يقول منشىء الرحلة ـ الشريف في العودة الى الجامع فأجابني: إن أردت أن لا تنام فاذهب الى المسجد !! فعلًا ظل المسجد حيًا بمن فيه من العُبّاد والمتبتلين الذين لا يفتأون يترددون على المسجد بمصابيحهم ومصاحفهم ... وهنا نذكر مرةً اخرى قول والده: «انهم بالملائكة أشبه» !!

ان المسجد في حركة دائمة، وما تنتهي حلقة إلا الى حلقة اخرى ... وأخذ المغربي يتساءل: هل هناك مسجد على وجه الأرض على نحو هذا المسجد ؟!

وقد قدر للمغربي أن يحضر مظهراً آخر من الحياة الاجتماعية مما يعبّر عن مركز الأشراف هناك. لقد وقع الاعلان في المسجد عن وفاة أحد رجال الفضل بالمدينة ... وطُلِب من الناس أن يقرأوا الفاتحة على روح الشريف أحمد بن أبي بكر ... وصدر الأمر لأحد الحاضرين يحمل إسم عبدالرحمن بأن يسرع الى المسجد الذي كان يؤم فيه ذلك المتوفى ... ويطلب الى الحاضرين أن يقدموا للصلاة بهم الشيخ باغُشَير في انتظار أن يعين لهم إمام جديد ... وكان أحمد بن أبي بكر هذا يؤم بالناس الصلوات الخمس في مسجد من مساجد آبائه ...

وقد لاحظ الرحالة المغربي أن أداء صلاة الصبح أيضاً لا يعني انصراف الناس لمشاغلهم اليومية ! ولكنه يعني بداية نشاط علمي جديد .. فقد افتتح مجلس لتدرس شمائل الإمام الترمذي ولم يتوقف الشيخ عن درسه إلا للاستعداد للذهاب لتشييع جنازة الشيخ أحمد ابن أبي بكر ...

وقد أخذ الشيخ بافضل ضيفَه «المغربي» الى بيت الشريف لتناول الفطور الذي كان يتألف من القهوة وخبز الذرة.

وذهب المغربي صحبة الشريف لحضور الجنازة ... وهنا شاهد عادات خروج الجنازة، ولاحظ كيف ان الأسرة تُهيمن على مشاعرها فلا نواح ولا صياح وإنما هو الاستسلام لقضاء الله ... وقد أمكنه مع هذا أن يحضر ما يمكن أن نسميه حفلة التأبين ...

فقد قام شاب من الأشراف لا يتجاوز سنّه السابعة عشرة وهو الذي كان قد صلى بالناس ... وذكر أن خاله السيد أحمد بن أبي بكر انتقل الى جوار ربه، وهو الذي عهد له بان يصلي بالناس عليه ... وطلب منه أن يطلب من الحاضرين الدعاء والمسامحة وأنه يوصيكم بتقوى الله ... وأضاف الى هذا نصيحة توجّه بها الى أهل البيت خاصة: وهي ان يبتعدوا عن مخالطة أضدادهم ... وقد حرص «المغربي» على أن يأتي بالنص الكامل لهذه النصيحة التي وجد فيها ما يفسر السر في احتفاظ المدينة بخصائصها وفضائلها. ان مدار التربية على أن لا يخالط الصالح الفاسد، وانه لكي تحقق هذه النصيحة يجب أن لا يهمل الآباء واجبهم ويتركوا ابنهم يخالط أضداده. ولما جلس قام آخر ليُثنّي على أهمية عدم السماح بمخالطة المرء لمن يشعر انه يفترق معه في الخصال والسلوك ..!

وفي طريقه الى الشيخ بافضل أدى وصفاً مختصراً لطريقة بناء البيوت في تريم بواسطة اللبنات المتكونة من التراب المخلوط بالتبن ...

وقد جرى حديث بين المغربي وبين الشيخ بافضل في بيت هذا الأخير: سأل المغربي مستضيفه عن المنهب الذي يتبعه أهل تريم ... وعن طريقتهم في تربية أبنائهم ...

وهكذا فبعد أن أكد الشيخ بافضل لضيفه ان الطريق المتبع في البلاد ليس إلا المذهب المرتكز على كتاب الله وسنّة رسول الله، وقال له: انهم حريصون جداً على أن تُترجم أعمالهم عمّا يرددونه من أقوال: أي انهم يطبقون العلم على العمل، أكثر من هذا وأحسن اننا سمعنا من الشيخ بافضل عن فكره التربوي الذي وجد فيه المغربي ما يدعو لتسجيله كاملًا ... ان الحضارمة يربون أولادهم باحتفاظهم بهم في بيوتهم ويعملونهم بافعالهم قبل أقوالهم ... وربما منعوا أولادهم من الذهاب الى حضور مجالس المدرسين الذين هم على غاية من الاستقامة والكمال خوفاً عليهم من لقاء بعض أضدادهم أثناء الذهاب والإياب في الطريق ...

وبمناسبة تناول القهوة مع الشيخ بافضل ... ساله المغربي: عن المكان الذي تجلب منه القهوة ؟ فاجابه بافضل: بانها من اليمن ... فسمح المغربي لنفسه بإلقاء المزيد من الأسئلة: وهل إن باقي المواد يؤتي بها كذلك من اليمن ؟ فاجابه: لا ... ان اغلب ما نحتاج اليه هو من بلادنا إلا ثلاثة أشياء: الإبرة، والموسى والكحل ... كل هذه البضاعات تاتينا مع الحجاج ... فساله عن الثياب ؟ فاجابه: بانها أيضاً من صنع اليمنيين، بل انها تزيد عن الحاجة، ولذلك فإن تجارنا يذهبون بها الى اليمن معاوضة بالبن. وهنا ساله المغربي عن السِّكة التي تُضرب في البلاد ويتعامل بها الحضارمة في أخذهم وعطائهم ... فاجابه: ان أكثر المعاملة إنما تتم مقايضة بالقمح أو الذرة أو التمر، ولم يكتُم بافضل أن هناك عملة مضروبة يتعامل بها ولكنها قليلة جداً، وان بعض الناس فقط هم الذين يتوفرون عليها، وهي تتميز بنقش فيها يحمل إسم الجلالة، وهنا يضيف بافضل معلومة تتصل بالعملة الرائجة (الريال) على نحو ما سبق عندما كان يتحدث عن الاجور التي يتقاضاها اللذين يحجون نيابةً عن غيرهم ... وعلى ما سنرى في النص ... وساله المغربي ؟ وكيف السبيل الى تكسير الدينار، فاجابه: لا وجود للدينار عندنا ...

وبعد هذا اتيحت الفرصة للمغربي أن يحضر مشهداً آخر لم يعتد حضوره ولا حتى السماع به: تلك هو تنصيب الإمام الذي يعوض ذلك الإمام المتوفى الذي حضر جنازته ..

فعلًا راح صحبة الشيخ بافضل الى المسجد المقصود حيث حضر جمع غفير من الأشراف وغيرهم من المصلين، وبعد أن تقدم أحد الأشراف فصلى بالناس الظهر، قام أحدهم فأبّن من جديد أحمد بن أبي



بكر الذي ـ كما قال ـ مضت عليه اثنتان وخمسون سنة وهو محافظ على الجماعة ... لم يتأخر عن واجبه إلا لعذر شرعي ... ولقد قالت عنه اخته مريم بحضرة كثير من الشريفات : إن أخاها ما شبع قط اختياراً ! وانه كان لا يعرف النوم في رمضان إلا إذا طلعت الشمس وصلى الضحى ! وانه يستيقظ قبل الظهر فيتوضأ ويستأنف عبادته الى اليوم الموالي ! وإننا ـ يتابع ذلك الاحد كلامه ـ اجتمعنا هنا لتعيين واحدٍ منكم يقوم بوظيفة الإمامة وفيكم الكفاية والأهل ، فاجابه أحد الحاضرين من الأشراف ، وهو عبدالله ، بقوله : ان المحافظين على صلاة الجماعة بهذا المسجد لا يقلون عن خمسة وعشرين من أبنائكم ، وفيهم تسعة من العلماء العاملين المدرسين ، فعينوا أنتم منهم من تحبون ... وأخذ القوم يتدافعون تلك الوظيفة حتى انتهى الأمر الى القرعة ! فاقترعوا فخرجت القرعة على الشريف عبدالله ... وهنا قرئت الفاتحة وختم المجلس بالدعاء .

وقد رأى « المغربي » في هذه التسوية أمراً جديداً عليه فاخبره الشيخ بافضل بأن الوظيفة في بلاده تكليف يصحبه أجر معلوم ...

ويقصد المغربي مسجداً آخر لينتظر فيه الشيخ بافضل ، وهنا يشهد لقطة اخرى تمثل نشاط الحياة العلمية في المدينة ، ويتعلق الأمر باستاذ لا يتجاوز الخامسة عشرِ من عمره يتصدر حلقة فيها المراهقون والكهول والشيوخ ... وأمامه مَن نُسمّيه في المغرب « بالسارد » أو النقيب كما يسميه ابن الجماعة ... وكان هذا السارد بالصدفة شيخاً يسرد ما تيسر من الكتاب ويسكت ، فيتحرك ذلك البحر الخضم فيلقي ما يلقي ...

ويحكي هنا عن حادثةٍ وقعت في أعقاب هذا الدرس ، فقد رفض أحد الحاضرين شرب القهوة التي قدمت اليه رغم حبه لها وذلك مجاهدة لنفسه وتربية لإرادته ! وتنتهي هذه الحادثة الى درس قوي في آثار الإرادة عندما تكون صادقة ... وان المرء يجب أن يتخلص من عبودية أية شهوة أو نشوة ، حتى ولو كانت قهوة ، وحتى لو كانت قهقهة !

وقد كان من أروع ما نقله « المغربي » عن ذلك الاستاذ الفتى ... نظرية تربوية اخرى ذكرتني فيما نسمعه من مختلف المربين ـ كيفما كانت حيثياتهم ـ وعلى اختلاف أزمانهم ومراتبهم ومشاربهم عن الدور العظيم الذي يمكن أن تؤديه القدوة التي تُشاهد بالبصر وليست التي تسمع بالآذان ...

فلقد عرف ذلك الاستاذ الفتى كيف يقنع مستمعيه بأن عيون الصبيان ـ وليس آذانهم ـ هي المنفذ الواسع الذي يتلقى منه الصبي ، ويقول ذلك الفتى : ان ما يتعلمه الصبيان عن طريق المشاهدة من أفعال آبائهم وأمهاتهم وممن يختلطون بهم في صغرهم ينتفعون به انتفاعاً عظيماً أو يتضررون به ضرراً عظيماً وليس كذلك ما يسمعونه بآذانهم ، فإنّ ما يرونه رؤيا عين يقلدونه إن خيراً فخير وإن شراً فشر ـ فصلاح أولادنا متوقف على ما يشاهدونه في بيتهم الذي تربوا فيه ، وسلوكنا يظهر فيما يراه أولادنا من أفعالنا اليومية ... وهم قد ينسون ما سمعوه بآذانهم ولكنهم لا ينسون ما شاهدوه باعينهم ! والآباء والمعلمون عاجزون عن تحريك الناس للعمل ما لم يكونوا هم من أهل العمل ..! وما نشاهده من الصلاح في أكثر إخواننا أهل البيت إنما حصل لهم من مشاهدة آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم الصالحين الذين تربوا بينهم ..!

لقد اعترف هذا المغربي بأن هذا الكلام أخذ منه مأخذه ، وانه لم يتمكن هو من كتابته ولكنه اعتمد على أحد الحاضرين فنسخه له ...

ثم تقدم المغربي الى هذا الاستاذ الفتى وأخبره بأنه قدم من الحج مع الشريف محمد بن أحمد ..

وهناك لقطة لا بد أن تثير انتباهنا : تلك أن « المغربي » طلب الى هذا العالم الشاب أن يجيزه ، فقد دأب العلماء المغاربة من قديم على أن يطلبوا اجازات من المشايخ في المشرق على ما سنرى ...

وقد عاد اليه الشيخ بافضل قبيل صلاة المغرب فاطلعه « المغربي » على ما سمع في هذا الدرس ، ثم ترجاه في أن يجد له سكناً ولو باجرة ... وهنا دله على (دويرة) يتملكها رجل طاعن في السن ، كان يعرف جيداً الشريف محمد بن أحمد ، فوجد في المغربي نعم الأنيس !

وانتهى بهما الحديث الى النوم حتى إذا اقترب الفجر خرجا الى المسجد على عادة الناس في المدينة ... وبعد الصلاة حلق الحاضرون على الامام ليتلقوا درسه في أحاديث (منهاج العابدين) للامام الغزالي ...

وبعد العودة الى المنزل سأل المغربي صاحب البيت عن ذلك الشيخ ؟ فقال له : انه (باعبيد) ممن يقومون الليل في ركعة واحدة ... ولم يلبث المغربي أن ذهب عنده لداره فتعرف عليه عن كثب حيث سمع منه ما ذكره مرة اخرى فيما رواه عن والده عن أهل هذه البلدة : إنهم بالملائكة أشبه ! وهنا ساله الشيخ باعبيد عن والده ومتى زار تَرِيم ؟ فاجابه بانه زارها منذ ثلاث وثلاثين سنة ... فساله : وهل دوّن رحلته ؟ فاكد له المعلومة التي سلف أن قدمها في بداية الرحلة ، وأن المخطوطة لم يُعثر عليها فيما خلفه والده ...

فماذا يمكن أن يخطر على البال في أمر « المغربي » الذي وصفه مؤلف كتاب (صلة الأهل) « بأحد علماء المغرب ونعتته مخطوطة الجبيشي بالرجل الصالح ؟ لقد ظهرت لي بعض خيوط في بادىء الأمر جذبتني معها فترة من الوقت ! فلقد عرفنا من خلال هذه الرحلة أن هناك رحلةً سابقة لوالد المؤلف ... فهناك إذن رحلتان : رحلة هذا الولد ورحلة ذلك الوالد .

ومن خلال استعراض عابر لفهرس الرحلات المغربية ، لاح لي أن أقرب من يمكن أن تنسب اليه رحلة الوالد هو محمد بن سليمان بن داود الجزولي الذي نسب له ابن القاضي في (لقط الفرائد) رحلةً قبل أن يتوفاه الله عام ٨٦٣ـ ١٤٠١ هـ[١٨]، بيد اني لم ألبث أن استبعدت هذا الافتراض ، فقد كان الرجل متصدياً للتدريس بالحرمين وأدركه أجله

بين أهله وبنيه هناك بمكة .

فلنرافق مصنف الرحلة لنتحسس خطواته ونقف عند أقواله : عندما وجد « المغربي » نفسه في مجلس عزاء لاحظ ان العادة في تَريم تختلف عنها في المغرب ، فأهل الميت هناك صابرون محتسبون أما في المغرب فان الهلع يؤدي بالأهل الى أن يفقدوا أعصابهم ...

فعلًا لقد تحدثت كتب النوازل الفقهية في المغرب عن هذه الظاهرة ...

ورد في كتاب (المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والاندلس والمغرب) تأليف أبي العباس أحمد بن يحيى الونشريسي المتوفى بفاس سنة ٩١٤ - ١٥٠٩ ، وهو معاصر لتاريخ الرحلة ، اقول أول ورد الحديث عن اجتماع النساء للبكاء على الميت بالصراخ ولطم الخدود[١٩]... ولقد فوجىء المغربي مرة اخرى وهو يحضر تنصيب فقيه يؤم بالمؤمنين في صلاتهم بأحد المساجد الكبرى بتَرِيم ، فوجىء عندما سمع أن الائمة هناك لا يتقاضون أجوراً وانه يكفيهم أن تُجمع عليهم كلمة المسلمين .. ولم يفته أن ينكر أن الامر في بلده المغرب على غير ما رآه في حضرموت .

والواقع ان العمل أيضاً جرى في المغرب على أن يتقاضى الايمة أجرة على ما يقومون به ، وقد حفلت كتب الفقه والنوازل ، على الخصوص بالقضايا التي تتصل بأجرة الامامة والامام ... وقد تحدث عن هذا كذلك الامام الونشريسي سالف الذكر في أكثر من مكان من كتابه المعيار[٢٠].

وقد قرأنا ان مصنف الرحلة « المغربي » يبدي رغبته في الحصول على الاجازة ، وهنا تذكرت افادة جليلة عن رحالة مغربي آخر ، هو أبو سالم العياشي الذي لقي الشريف محمد باعلوي الحضرمي بمكة عام ١٠٦٤ - ١٦٥٤ وطلب منه الاجازة ، فأجازه الشيخ باعلوي بما عنده عن شيخه عبدالله بن علي عن شيخ بن عبدالله ، عن والده عبدالله بن شيخ عن عمه ابي بكر بن عبدالله العيدروس ، عن والده وعن عمه عمر المحضار ابني عبدالرحمن السقاف ... الخ .

أضف الى كل هذا ان التاريخ الذي تمت فيه الرحلة الى تريم (٨٦٥ - ١٤٦٠) كان ظرفاً مرشحاً بالنسبة للمغاربة - للقيام بهذه الرحلة ، فقد غلب التصوف في تلك الفترة من التاريخ بعد أن سقطت سبتة في يد البرتغال عام ٨١٨ - ١٤١٥ ، وبعد أن صدر قرار البابا نيكولاس الخامس بتاريخ ٨ محرم ٨٥٨ - ٨ كانون الثاني ١٤٥٤ الذي يخول فيه الاستيلاء على بقية السواحل المغربية[٢١].

وقد داعبني الشعور بأن هناك تعمداً في إغفال الرحالة لإسمه ونسبه وبلدته بل وفي إغفال التدقيق للاعلام الشخصية الواردة في الرحلة مما عبر عنه الشاطري « بالغموض والإجمال » : محمد بن أحمد - الشيخ بافضل أحمد بن أبي بكر - عبدالرحمن باغُشير - أحمد - عبدالله - الشريفة مريم - الشريفة نور بنت محمد - الشيخ باعبيد ..

وثمة عنصر آخر لم يمكن إغفاله ، ذلك هو تعلق المغاربة بالمشرق وخاصة بني عمهم ... من العلويين . وهكذا بدا أن منشيء الرحلة من المعبّرين عن ذلك التعلق بالأشراف العلويين الحُسينيين (بضم الحاء) الذين نزلوا حضرموت في نفس التاريخ تقريباً الذي نزل فيه أبناء عمهم العلويون الحَسنيون (بفتح الحاء) بالمغرب[٢٢].

هناك نقاط كانت تغازلني للبقاء الى جانب الاطروحة التي تنسب الرحلة الى عالم مغربي بالرغم مما كان يطفو أحياناً على الاسلوب الإنشائي من كلمات عليها مسحة الحداثة مما ساكَلَ متابعته للقارىء النبيه الذي يعيش مع اسلوب الامس البعيد ، ويمارس اليوم تراكيب تستمد من روافد اخرى غير اللغة العربية : أجِئْني في أنس عظيم .. وبِتْتُ أن يشرح لي - يا تُرى هل - لعلك تعبان ! حفلة التنصيب - الحقيبة - الزورق مال المركب ...

وأرجو أن أقول أيضاً انه لم يشوش عليَّ التاريخ المتاخر للمخطوطات التي تتحدث عن الرحلة ، لاني افترضت انها قد تكون نقلت من مخطوطة من عشرات آلاف التي تعج بها هناك رفوف المكتبات العامة والخاصة ...

لكن كلمة واحدة في الرحلة هي التي أنهت صلاحية (تاشيرتي) لمواصلة رحلتي ! كانت كلمة لا تتجاوز أربعة أحرف ، هي التي كانت وراء تحولي ، وليس ما نقله بعضهم بصيغة (قيل) و (يقال) من الافعال المبنية للمجهول التي لا تتناسب ومنهاج البحث العلمي ...

وحتى لا أطيل على القارىء حول هذه الكلمة ذات الاحرف الاربعة ... أذكر انها لفظ (ريال) ... فقد ذكره منشىء الرحلة مرةً باسمه وعدده بل ونعته بالاشرفي ... ثم ذكره مرة ثانية عند حديثه عن السكة المضروبة في حضرموت !

ان اسم (الريال) لم ينسجم اطلاقاً في وجداني مع نعت الاشرفي ... ولكانما قرأتُ (الدولار الاشرفي) !!.. إسم (الريال) انما ظهر حديثاً ، وان المعروف لدى سائر الذين يتتبعون تاريخ العملة سواء عند المغاربة أو المشارقة هو ان كلمة (الريال) لم تكن قد وجدت بعد في ذلك العصر ... فكيف ساغ استعمالها قبل تاريخ ميلادها باكثر من قرنين !!

وكلمة (الريال) أولا من أصل اسباني (Réale) ، وهو اسم أصبح يطلق في العالم الاسلامي ، في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجري - السابع عشر والثامن عشر الميلادي ، على القطع الكبيرة من العملة الفضية الاوربية التي كانت رائجة دولياً في ذلك التاريخ .

وقد أطلق (الريال) أيضاً على التالر (thaler) الجرماني الذي توالى إصداره الى القرن التاسع عشر ، وعلى الريال الفرنسي القديم (ÉCU) ، وعلى السكوبو (SCUDO) الريال الايطالي القديم .

وفي القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر أخذ التالر المنسوب الى ماري تيريز (Marie- Thérese) النمساوي مكان سائر القطع



المنافسة وأصبح رائجاً في منطقة البحر الأحمر ، ولو أن كلمة (الريال) احتفظت بإسمها وبقيمتها كذلك .

وقد ظهر إسم الريال في النظام النقدي للبلاد الاسلامية المعاصرة في نهاية القرن الماضي : الحجاز واليمن والعراق وهو الاسم الذي كان يعطي للقطعة الفضية الكبيرة وقد كان شكله هو شكل تالر (ماري ثيريز) سالف الذكر .

وفي سنة ١٢٩٧ - ١٨٨٠ ظهر ريال في السوق من قبل سلطان زنجبار (ZANZIBAR) وفي بلاد فارس والبلاد المجاورة كذلك ، وكان عملةً يحسب لها حسابها ، حيث كانت العشرون ريالًا توازي جنيهاً استرلينياً في بعض الأوقات .

وقد عرف في الوثائق المغربية ريال (بومدفع) وهو نقد اسباني يحمل شعار (أعمدة هرقل) التي أخذها المغاربة (١٢٦٨ - ١٨٥٢) على انها مدفع[٢٣]... كما ظهر ريال (بو وذن) لانه يحمل شعار الملك الاسباني (١٨٧٠ م - ١٢٨٧ هـ) أميدي (Amedée) الذي كانت أذنه ظاهرة في الريال ، وكان هناك ريال يحمل اسم العاهلة الاسبانية ايزابيل ، ويسميه المغاربة ريال المرأة !

وفي النظام النقدي المغربي المسمى بالحَسَني (نسبة الى الملك الحسن الاول) - (أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين) كان الريال يعادل ما يسمى (دورو) عند الاسبان ، ويعني القطعة الفضية التي ضربت في أوربا لحساب المغرب ، وكانت توازي خمس فرنكات أو بسيطات .

أوردت كل هذه المعلومات لابرز أكثر أن كلمة (الريال) لم يكن لها وجود هناك في القرن العاشر الهجري ، ومن ثم فإن استعمالها في مصنفات سابقة لهذا التاريخ يدعو للتساؤل ...

وبعد هذا الحديث عن كلمة (الريال) ... لنعد الى النعت بالأشرفي[٢٤]. ان الكلمة طبعاً نسبة الى الاشرف ، فمن هو هذا الاشرف الذي قصده محرر الرحلة ؟ لا شك ان هذا المحرر كان يفكر في الاشرف اسماعيل ابن العباس الذي ولي سنة ٧٧٨ - ١٣٧٧ واستمر الى عام ٨٠٣ - ١٤٠١ ... وقد كان من أهم ملوك الدولة الرسولية التي حكمت اليمن[٢٥]...

واعتقد ان اختيار الاشرف هذا لتنعت به الريالات ، اختيار مرتجل أيضاً وان نظرة عابرة على مصادر التاريخ اليمني ، وعلى المجاميع التي تهتم بالنقود والعملات والسكة ، لم تُرِد جملة « واحدة » فيها - حسب علمي - عبارة « الريال الاشرفي » .!! وانما ترد الدنانير والأواقي واللكوك[٢٦]، ومعنى كل هذا ان هذا النعت أيضاً يدعو للتساؤل ...

وإذ وقفنا أمام هذه التساؤلات التي تفرض علينا إتخاذ الموقف الذي تقتضيه الامانة العلمية ... فإننا نشعر ان من واجبنا - من جهة اخرى - أن نعترف بالمجهود الذي بذله منشىء الرحلة في سبيل أن يقدمها الينا على ما هي عليه ...

فعلًا كان مجهوداً رائعاً يستحق الوقوف عنده لأنه يعبّر عن فكر خصب كما يعبّر عن ثقة في النفس ...

لقد كان على ذلك المنشىء أن يقرأ جيداً الفصل الخاص ببلاد اليمن من رحلة ابن بطوطة التي كانت قد ظهرت في مصر عام ١٣٨٨ - ١٨٧١ بعد أن صدرت بباريس مصحوبة بترجمتها للفرنسية عام ١٨٥٨ م[٢٧].

لماذا ابن بطوطة بالذات ؟ لان هذا الرحالة المغربي كتب الكثير عن المنطقة وتحدث مثلًا عن « الذُرة » مرتين كمادة غذائية هناك ... ومن هنا جاءت الفكرة لمنشىء الرحلة بأن يفكر في تقديم الذرة كصحنٍ من الصحون المعروفة في حضرموت ...

ونحن نتحدث عن الطعام ، لا بد أن نلتفت الى كلمة (كعك) الواردة في الرحلة المغربية والتي كان لها وجود أيضاً في رحلة ابن بطوطة ، على نحو ما كان لكلمة (الدويرة) وجود كذلك .

ولم يكن هذا هو الاقتباس الاول والأخير من ابن بطوطة ، فان هناك اقتباساً آخر يتصل بتعلق المغاربة بالمنطقة ... وتجذر تلك الصلات ، فقد وجد ابن بطوطة ان هناك - منذ القدم - نقاط لقاءٍ عديدة بين أهل المغرب وتلك الجهات[٢٨]...

وبالاضافة الى كل هذا فإن الحديث عن سلوك الحضارمة واستقامتهم وزهدهم واكتفاءهم باليسير كل هذه لقطات لم يهملها ابن بطوطة !

ولكن هل لم يلتفت منشىء الرحلة لغير ابن بطوطة ؟ أعتقد انه استوحى أيضاً من رحلة يوسف بن عابد الادريسي الفاسي ... فقد تحدث ابن عابد عن السبب الذي دعاه الى المجيء الى حضرموت وأن والده رحمه الله كان وراء ذلك التوجيه ... وكما تأثر « المغربي » الذي زار تَريم ، فقد رأينا ابن عابد هو بدوره يتأثر من تلك المجالس العلمية .. واذا كان ابن عابد أشار الى وجود بعض الاتراك في المجالس العلمية فإن منشىء الرحلة - وهو فطن جداً - كان يعرف ان الاتراك لم يحن وقتهم للوصول الى اليمن في الوقت الذي رتب فيه رحلته ... على ان هناك ظروف عيد الاضحى وملابساته في هذه الرحلة أو تلك مما لا يخفى على القارىء الذي يقارن بين الرحلتين ...

وماذا عن اختياره لكتب أبي حامد الغزالي كمادة للدرس آنذاك ؟ أعتقد ان كاتب الرحلة كان يتوفر جيداً على ما كتبه الامام الشلّي في كتابه (المشرع الروي) الذي عرّفنا بان تآليف الامام الغزالي كانت في صدر مراجع الامام العيدروس علاوة على ما سجلته أيضاً رحلة يوسف ابن عابد ... وليس من الصدفة أن يختار منشىء الرحلة اسم الجامع العتيق في تَريم : مسجد بن أحمد ، وليس باعلوي ، حتى يضفي صبغة القدم على مروياته ..!

وقد نجح منشىء الرحلة في رسم صورة للمنافسة التي كانت بين حضرموت والجهات الاخرى في اليمن وخاصة أواسط القرن التاسع ،

عندما كانت تسجل بعض الاحتكاكات والمواجهات على ما تؤكده نفس المصادر اليمنية .

والحديث عن « القهوة » الذي ورد مراراً وتكراراً كان يقصد الى ابراز أن المنطقة كانت على ذلك العهد من هواة القهوة ، ويكفي أن نعرف ان الامام العيدروس كان من هواة هذا المشروب(٢٩)... وبما أن « وصول » المغربي الى تريم كان يصادف وفاة العيدروس فلا بد أن يجد المدينة وهي ما تزال تحتفظ بما كان في أيام العيدروس !

ومن جهة اخرى فان (القهوة) التي لم تكن معروفة في المغرب آنئذ ، لا بد أن تلفت نظر ذلك « المغربي » اليها والى شاربيها ولا بد في التالي من تكرار ذكرها ... لانها بالنسبة اليه جديدة .

وفي هذا الصدد أذكر بانني على مثل اليقين من أن صاحب التاليف أطلع أيضاً على رحلة أبي سالم العياشي الذي عبّر عن استغرابه من تناول أهل مصر للقهوة مع انها « ليست طعاماً ولا دواءً ولا مما يشتهى ! » على حد تعبير العياشي في رحلته(٣٠)...

وان حديث « منشيء الرحلة » عن عادة المغاربة في نُواح نسائهم على الميت ... وعادتهم في أدائهم الاجرة للائمة الذين يؤمون بالناس ... أقول : ان ذلك الحديث إستقاه ، بدون شك ، عن طريق قراءة كتب النوازل التي أشرنا اليها ، والتي كانت منتشرة في المشرق أيضاً ، علاوة على ما نعرفه عن الهجرة المبكرة لبعض المغاربة من أمثال الهاشمي التونسي الى تلك المناطق ، ممن كانت لهم صلة بباقي المهاجرة من الجهات الاخرى وخاصة منهم الحضارمة(٣١).

ومن المجهود المبذول من طرف منشيء الرحلة حديثه عن التاريخ الذي صادفه بتريم يوم ١٤ محرم ٨٦٥ وكان يوافق خريف ذلك العام (٣٠ ت ١٤٦٠٠١) ، لقد كان ذكياً في اختيار ذلك التوقيت أيضاً ، وقدر ان موسم الحج ينتهي حوالي منتصف شهر ذي الحجة ، وهو الوقت الذي أزمع فيه على الرحيل نحو حضرموت ... بحيث لم يكن هناك وقت ضائع ...

وقد أثار انتباهي في الرحلة ذلك (السيناريو) الذي اخترعه منشيء الرحلة ليحكي لنا قصة الشيخ أحمد بن أبي بكر الذي تناول لحم العيد فشوش على بطنه ولازمه المرض الى أن التحق بربه ..!

لقد كانت القصة على العموم محبوكة بشكل مقبول ، وان منشئها ليستحق التنويه عليها وخاصة في اتقانه التعبير عن تقدير المغاربة لتلك الخصال الحميدة التي يتوفر عليها أهل اليمن ، كما وإتقانه التعبير عن شعور أهل حضرموت إزاء ذلك المغربي الذي زار بلادهم على نحو ما حكاه ابن بطوطة الطنجي وهو يشيد بعطف اليمنيين على الغريب أو على نحو ما سيحكيه ابن عابد الفاسي وهو يثني على أريحية الحضارمة ...

وبعد فلقد كانت « الرحلة » اضافةً جميلةً وفريدةً لادب الرحلات في المشرق والمغرب ، ولادب (المقامات) الذي دشنه الهمداني ...

وهي ان دلت على شيء فإنما تدل على ما كان يهيمن على فكر منشئها من اقتناعٍ بما يربط بين اليمن والمغرب من أواصر تجعل منهما بلدين يثق كل منهما بالآخر وتجعلهما معاً يتبادلان فيما بينهما التقدير والود بالرغم مما يفصل بينهما من مسافات شاسعة . ومن يدري ؟ فقد يكون منشئها قصد الى اقحام كلمة (الريال الأشرفي) ، ليختبر القراء فيما قد يختفي !!

النص الكامل للرحلة مع التعليقات

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه رحلتي الى مدينة تَرِيم(٣٢)، اختصرتها غاية الاختصار ، وقد رحل قبلي الى هذه المدينة المباركة مدينة تريم ، والدي رحمه الله ، إلا أن رحلته كانت وأنا في سن الطفولية(٣٣)، فلما ترعرعتُ وصرت أحضر دروسه سمعته ذات يوم يذكر رحلته الى حضرموت(٣٤) ويخصص بالذكر بلداً هناك إسمها تَرِيم ، وقد أغرق ذات يوم من الأيام في وصفه لما عليه الأشراف أهل البيت الطاهرين من العلم والعمل الساكنين بتريم حتى ختم وصفه بقوله : انهم بالملائكة أشبه ! فاثَّر كلامه معي ، وصرت كلما سنحت فرصة عاودته عن أخبار رحلته ، وقد قلت له يوماً : لو دونتم رحلتكم ؟ فقال لي : قد دونتها ، وما أتت عليه - بعد ذلك - إلّا مدة يسيرة وفارق الدنيا ، رحمه الله ، ولقد فتشت بعد موته على تلك الرحلة فلم أعثر عليها ، غير ان وصفه لاولئك الاشراف الطاهرين المطهرين لا يزال يطن باذني ، ومراراً كثيرة يخطر ببالي أن أرحل الى تلك المدينة لزيارة من بها من العلماء والاولياء من أهل البيت النبوي ، حتى عزمت على أداء فريضة الحج وزيارة الشفيع الاعظم ﷺ ، وتوجهت الى الحرمين الشريفين وحججت وزرت قبره ﷺ ورجعت الى بَنْدر(٣٥) جدة ، وسألت عن حضرموت وكيف الرحلة اليها ، فاحسن لي بعض معارف والدي فارشدني الى كيفية الرحلة اليها ، فصممت حينئذ عزمي على الرحيل ، الى بلد تريم ، وبعد أيام حضرت الساعية(٣٦) الذاهبة الى بندر الشِّحْر(٣٧) وعبرت فيها مجاناً ، فلما كنت في الساعية بين الحجاج العائدين الى اليمن وحضرموت ، أخذت أسأل عن أهل حضرموت وأذكر تَرِيم فدلني أحد الحجاج من أهل الشِّحر على رجلين هما من مدينة تريم : أحدهما من الاشراف اسمه محمد بن أحمد والثاني تلميذه الشيخ بافضل(٣٨)، فجئت اليهما وتعرفت بهما وأخذت في مراقبة حركات ذلك الشريف وسكناته ، فعرفته رضي الله عنه جالساً في موضعه ، لا ينتقل منه إلا لقضاء حاجته ، ورأيته مفترشاً حصيراً ومعه شملة(٣٩) سوداء خفيفة ، رأيته يتوضأ من ابريق معه كان من الخزف ، رأيته في الصباح يشرب قهوة(٤٠) كانت آنيتها من خزف أيضاً ، رأيت الحجاج في الصباح يقدم له بُعضهم كعكاً(٤١) ناشفاً ، فيأخذ منه يسيراً ، ثم يتناهب الحجاج فضلته للبركة بسُؤره .

قمت ليلةً من الليالي ، فوجدت الشريف جالساً والشيخ بافضل أمامه ، وهما يتدارسان القرآن عن ظهر قلب ، فعدت ونمت ، ثم استيقظت فوجدتهما على حالتهما الأولى فراقبتُهما حتى طلع الفجر ، فأذَّن الشيخ بافضل للفجر فاسرعت فتوضأت ، وصلينا خلف الشريف مع كثير من الحجاج ، ولا تسأل عن رقة صوته ، وعن حسن صلاته ، وبعد ذلك مكث الشريف وصاحبه الشيخ بافضل يتدارسان القرآن حتى طلعت الشمس ، أما الشريف فقام يصلي ، وأما الشيخ بافضل فقام ليعمل قهوة ، فذهبت اليه وساعدته حتى قدمتها بيدي الى المولى الشريف ، وشرب منها ما تيسر وتناول مما قدمه الحجاج من الكعك ، وقد مرّت علينا سبعة أيام بالبحر ، ويوم الثامن أرست بنا السفينة في مرسى بندر الشِّحر وكنت في خلال تلك المدة أتمنى أن يسألني الشريف أو الشيخ بافضل عن إسمي وعن إسم بلادي أو الى أين أقصد ؟ فلم يكن شيء من ذلك ! فتذكرت وصف والدي رحمه الله لاولئك الاشراف حيث قال : إنهم بالملائكة أشبه ! فوصل الى الساعية أرباب الزوارق فسمعت الشريف يقول للشيخ بافضل : استأجِرْ لنا زورقاً إجارةً صحيحة ، إلا أن رُبان الساعية ، أحسن الله اليه ، حالًا تقدم الى الشريف فقال : ان القارب مال[42] الساعية حاضر لتعبروا عليه الى الساحل معنا ، فتفضلوا ، فقام الشريف وأخذ الشيخ بافضل ما معه ، وما مع الشريف من المتاع ، ولكن أتدري ما هو ذلك المتاع ؟ هو زنبيل[43] فيه كل ما معهما من آنية وفراش وكتب وزاد ، جعله الشيخ على كتفه وأنزلوا ، ونزلت أنا خلفهم بإجازة ربان الساعية أحسن الله اليه ، فلما أوصلنا الى الساحل ، تقدم الشريف يمشي وتبعه الشيخ بافضل وزنبيله على كتفه ، فودّعهم ربان الساعية ، وطلب منهما الدعاء ، فتقدم الشريف يمشي وتبعه الشيخ بافضل وتبعتُهما حتى وصل الشريف الى بيت فدخله ودخل الشيخ بافضل ، ولم يلتفتا إليَّ ! فنظرت يميناً ويسرةً فوقع نظري على مسجد كان قريباً من ذلك البيت ، فقصدته ونزلت برحبته ، فاضطجعت وغشيني النوم ، فلما استيقظت رأيت الشيخ بافضل داخل المسجد ، فذهبت اليه ، وقال لي : أنت هنا ؟ فقلت له : أين الشريف ؟ فاشار اليه داخل المسجد ، فاتبعت بصري وإذا بالشريف قائم يصلي ، فاسرعت وتوضأت هناك من ماءٍ مالح[44] وبعدها أذن المؤذن لصلاة الظهر ، واجتمع الناس وأقيمت الصلاة ، فطلب إمام المسجد من الشريف أن يتقدم فامتنع[45].

وقضينا الظهر الى أن خرج كل من في المسجد إلا الشريف والشيخ بافضل صاحبه ورجلان من أهل البلد ، فتقدم أحدهما الى الشريف ، فسمعته يقول له : هيّا تفضلوا نعود الى البيت ، فعرفت أنه رب البيت الذي نزل به الشريف ، فوثب الشريف ووثبوا كلهم ، ووثبت أنا معهم ، فتقدم إليَّ أحد الرجلين أحسن الله اليهما ، وقال : متى جئتم البَنْدر ؟ فقلت له : بصحبة مولانا الشريف ، فقال لي : تفضل علينا ، فقمت وتبعتهم حتى وصلنا المحل المهيأ لمولانا الشريف وعندما رآني مولانا الشريف تبسم في وجهي ، وقال لي : أهلًا بصاحبنا في السفر ! فسررت حينئذ سروراً عظيماً واغتنمت الفرصة وقتئذ فقلت له : وان شاء الله أكون معكم الى تَريم لزيارة أمثالكم بها ، فقال : نية صالحة . وهل حدثت لكم الآن ، أم هي معكم من قبل ، فأخبرته بأن والدي رحمه الله ، قد رحل الى تَريم ، وأخبرته بما تقدم وبما سمعته من قول أبي ، وأني لا أزال من ذلك الوقت وخاطري متحرك للزيارة ، فبشرني ببشارة عظيمة وقال : إن شاء الله تظفرون بما أملتم ، ثم قال لي وللحاضرين : إني أعتاد ضجعةً قبل الظهر وهذا اليوم لم أتمكن منها فاستأذنكم فيها ، فتحولنا الى مجلس آخر ، فقال لي الشيخ بافضل : معكم نية لزيارة أهل البيت بتَريم ؟ فقلت له : نعم ، قال : وهل حججتم قبل هذا العام ؟ فقلت : لا ، وانما حججت هذه السنة عن فرضي ، وهل حججتم أنتم قبل هذا العام ؟ فقال : نعم قد حججنا ، وهذه المرة حججنا بالإجارة عن غيرنا ، فقلت له : وكم في الغالب مبلغ الإجارة من بلدكم ؟ فقال : ان الشريف استؤجر للحج والتسليم على جده بنحو خمس عشر ريالًا أشرفية[46] والفقير بنحو ثمانية منها ، فقلت له : وأين تكون هذه ؟ فقال : تكفينا لمؤنتنا ذهاباً وإياباً وزيادة ، وهنا وددت أن يشرح لي المؤنة بالتفصيل فأحجمت عن ذلك حياء ، وبالجملة فمدة إقامتنا ببندر الشِّحر أربعة أيام ، وبعدها توجهنا الى تَريم مع الجمَّالة ، وكانت المسافة ما بين الشِّحر وتَريم سبعة أيام ، إلا انها بمشي خفيف جداً ، وعشية يوم الثامن وصلنا محلًا خارج البلد ، ومنه بعث الشريف بشيراً الى تَريم يخبر أهله بعودته ،وبعد برهةٍ يسيرةٍ تلقانا الكثير من الاشراف وغيرهم ويطلبون منا كلًا على حدته الاستغفار والدعاء ، وعرجنا على المقبرة لزيارة شريف منهم يدعى بالشريف المقدَّم ، فزرناه فقط ، ومن المقبرة الى بيت الشريف محمد ، وقبل أن نصل اليه قال لي الشيخ بافضل : تنزل عندي ؟ فقلت له : أنزل في أقربِ مسجد الى بيت مولانا الشريف ، فقال لغلام : إذهب بهذا الى مسجد بني أحمد[47] ، فتوجهت مع الغلام حتى المسجد ورجع الغلام ، ودخلت أنا المسجد والوقت قبل المغرب ، وأخذت أطوف في أنحائه فعرفت محل الوضوء وغيره ، وكانت معي حقيبة صغيرة ، فيها بعض متاعي ، وما أحتاج منه مما لا بد منه فوضعتها أمامي ، وجلست حتى أذن المؤذن لصلاة المغرب فاقبل الناس أفواجاً أفواجاً وأقيمت الصلاة ، وبعد أن فرغنا منها صليت ركعتين وأخذت أنظر من في المسجد من الأشراف ، فإذا بعضهم قائم وبعضهم ساجد ، وبعضهم جالس ، مستقبل القبلة ، ورأيت في ناحية من المجلس قوماً يدرسون القرآن عن ظهر قلب ، ثم رأيت تلامذة مصطفين ينتظرون استاذهم للتدريس ، فجاء الاستاذ وشرع في الدرس يقرأ لهم في إحياء الإمام الغزالي[48] ويقرر لهم تقريراً دقيقاً جداً ، ثم دققت النظر فيمن في المسجد فرأيت الجميع على نهاية من الادب وما رأيت أحد قد يتكلم مع آخر ، بل كل منهم في شغله مشغول بربه ، وعندئذ تذكرت ما قاله والدي رحمه الله ، انهم بالملائكة أشبه ! وبينما أنا على هذه الحالة وإذا بمؤذن العشاء وبعده بمدة وجيزة اقيمت الصلاة ، وتقدم الإمام وأحرم بصلاة العشاء فغشيني من الهيبة والجلال

ما غشيني عندما سمعت تكبيرة الاحرام ، وقد قرأ في الاولى سورة ق ، وفي الثانية المزمل ، ولا تسأل عن حسن تلك القراءة وتأثيرها في القلوب ، وما فرغنا من صلاة العشاء وجلسة بعدها حتى عاد اولئك العباد وانتصبوا يصلون ، أما أنا فمكثت في محل آخر قاعداً أمتع بصري برؤية اولئك الطاهرين المطهرين ، وبعد ذلك جاءني الشيخ بافضل وقال : هيا بنا لنأخذ ما تيسر في بيت مولانا الشريف وإنه أرسلني اليك ، فقلت له : إني جئت الى هذا البلد لمشاهدة اولئك العباد وأجدني في أنس عظيم ، ودعني انتظرهم حتى يفرغوا من صلاتهم لألتمس بركتهم ، بلثم أكفهم الكريمة ، فقال : قم وأحدثك خارج المسجد ، فقمت وخرجنا من المسجد ، فقال لي : إن في هؤلاء من لا يعود الى بيته إلا في الغد بعد أن يصلي الضحى ، ومثل هؤلاء في البلدة كثيرون ، وسترى في منزل الشريف من هو مثل هؤلاء وفوقهم ، علماً وعملًا ، فقلت له : هيا بنا ، فتقدّمَ وأنا خلفه حتى وصلنا المحل المهيأ للجلوس فيه ، فسلم الشيخ بافضل ، وردَّ عليه أكثرهم ، وجلسنا ، وقلت : لا بد وأن يستنكروني ، فيسألوا عني الشيخ بافضل ، فلم يكن شيء من ذلك ، أما المجلس فمفروش من الحصير المتخذ من خُوص النخل ، وفيه نحو من عشرةٍ من الأشراف ، ولا تسمع لاحد صوتاً كأنما على رؤوسهم الطير ، وقد وددت أن اسأل صاحبي الشيخ بافضل عن اسمائهم ، فحال بيني وبين سؤالي جلال المجلس وهيبت وبعده حضر الطعام في قصعتين واجتمع الكل عليه ، وكنت قد اقتصرت على القصعة التي تليني ، وهي من خبز طعام الذُرة[٤٩]، ولا أعرف بماذا كان إدامها لأنها مثرودة بمرقة لا لحم فيها ، فلما رآني المولى الشريف مقتصراً على ما حولي ، قال لي : كل من هذه القصعة الثانية ، فامتثلت وأكلت منها وكان إدامها فيه حموضة ، وعندئذ قال الشريف مخاطباً لي : إن الإقامة ببلدنا تَريم لا تصفو إلا بالزهد والقناعة بميسور العيش ، فاجابه أحد الأشراف ، كانت على رأسه خوذة[٥٠]، فقال : لو زهدنا حقيقة لما جمعنا بين إدامين ، وانما الزاهد الحقيقي هو متبوعنا الأعظم ﷺ ، فقال آخر : الحمد لله على إتصالنا به ، والحمد لله على وجود رجال من أهل البيت هم موجودون اليوم بتَريم يطوون الأشهر لا يذوقون فيها غير الأسودين : التمر والماء ! فسمعت واحداً منهم يقول : نعم ، نعم ، ولما رفعنا أيدينا عن الطعام تقدم الشيخ بافضل فاستأذنهم ليذهب الى بيته ، فاذن له المولى الشريف ، وبعده استأذن الجميع في الإنصراف ، وانصرفوا وبقيت أنا آخر القوم ، فقال لي الشريف : الى أين تذهب ؟ ان هذا المنزل هو مهيأ للزوار الغرباء ، فقلت له : الى المسجد ، فقال لي : إن أردت أن لا تنام فاذهب الى المسجد لأنك زائر ، فقلت له : إن شاء الله ، وانصرفت وأمر غلاماً يوصلني الى مسجد بني أحمد فأوصلني ورجع ، أما أنا فدخلت المسجد وقد تركت حقيبتي فيه ، فلما دخلته رأيت الذين فارقتهم فيه وهم على حالتهم التي تركتهم عليها وما بقي غير مصباح ضئيل نوره ، يصلي بالقرب منه رجلٌ طويل متأبطاً مصحفاً ينشره تارة ويطويه اخرى ، وحالًا أخذت أصلي بغدية[٥١] العشاء والوتر ، فلما فرغت من صلاتي اعتكفت وجلست ممتلئاً أنساً بمشاهدة اولئك الناس الذين أكرمهم مولاهم باصطفائه لهم ، وأخذت افكر في نفسي ، وأقول : يا هل ترى يوجد في مسجد آخر في بلد اخرى ، أمثال هؤلاء ، ولكنني تذكرت وصف والدي رحمه الله لأهل البيت بتريم حيث قال : انهم بالملائكة أشبه ! فغلب عليّ ظني انهم معدوموا النظير ، وبينا أنا على تلك الحالة وفيما أظن قد مضى من الليل نصفه الأول ، واذا برجلٍ دخل الى المسجد فاسرج مصباحاً وبعده استقبل القبلة وانتصب مع المنتصبين وبعده جاء آخر ، وهكذا الى أن غص المسجد بالزحام وعاد المسجد الى حالته التي كان عليها ، ما عدا الاستاذ المدرس سابقاً ، وبعد أن أذن المؤذن للفجر الأول رأيت رجلًا دخل فتخطى الصفوف ، حتى جثى[٥٢] بين يدي أحد الأشراف الشيوخ وأسرّ اليه كلاماً ورجع من حيث أتى ، فلما أذن المؤذن الاذان الثاني للفجر وركع القوم ركعتي الفجر تكلم ذلك الشريف وقال : إقرأوا الفاتحة للسيد أحمد بن أبي بكر ، فانه انتقل الى رحمة الله تعالى ، وبعده قال أحدهم : رحمه الله ولقد صليت العشاء البارحة خلفه ، ثم إن الشريف الأول قال : يا عبدالرحمن اذهب الى مسجدهم هناك ، وقل لهم : عمي يقول لكم ادعُوا الشيخ باغُشَير[٥٣] يصلي بكم صلاة الصبح ، وغداً سنعين لكم واحداً للإمامة ، وبعد ذلك اقيمت الصلاة وتقدم الإمام وصلى بالقوم فقرأ في الأولى بغمّ يتساءلون ، وفي الثانية إذا السماء إنشقت[٥٤]، وانقضت الصلاة ولا أعرف فيما مضى من عمري اني صليت الفجر بوضوء المغرب إلا تلك الليلة ! وقد عددتها من بركتهم رضي الله عنهم آمين ، أما أكثر المصلين فقد لزموا أماكنهم حتى الإسفار فانفضّ أكثرهم الى صحن المسجد واصطفوا ، فعرفت ان هناك درساً ، وبعده بزمن يسير قام من الصف أحد الأشراف ، وجلس أمام التلامذة ، وشرع يقرأ لهم في شمائل الإمام الترمذي[٥٥] رضي الله عنه ، ولا يذكره ﷺ ، إلّا بقوله الحبيب الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ، واستمر الدرس الى أن كادت أن تطلع الشمس فختم الدرس بقوله : الى هنا نختم الدرس لأجل تشييع الجنازة ، وختم الدرس ، وبينا أنا على حالتي ، وإذا بالشيخ بافضل قد أخذ بيدي ، وقال : قم ، فتناولت حقيبتي وخرجنا من المسجد الى بيت مولانا الشريف ، فلما دخلنا ، حالًا جلس الشيخ وجلست والتراب فراشنا ، فقال لي الشيخ كيف أنت ، وكيف بت ؟ وأخبرته بما كان لي ، وسالته عن الرجل المتأبط للمصحف يطويه تارة وينشره اخرى ، فقال : أما المصباح فيأتي به معه من بيته ويستضيء به لانه ربما أُرتج عليه في القراءة ، ثم جاء غلام يحمل الينا قهوة وقطعتين من خبز الذُرة ، وبعد أن شربنا وأكلنا قلت للشيخ بافضل أين مولانا الشريف ؟ فقال قد ذهب لتشييع جنازة بعض الأشراف فهل لك في التشييع ؟ قلت له : نعم ، ولكني اريد أن أقضي حاجتي وأتوضأ ، فساعدني ، أحسن الله اليه ، وتوضأت وذهبنا الى بيت المتوفى ، فوجدناه قد امتلأ بالمشيّعين يتلون كتاب الله عن ظهر قلب إلا القليل ،



حتى خرجت الجنازة يتقدمها رجل يجهر بالتهليل تارة ويسكت اخرى ، ومشى المشيّعون ، وكنت منتظراً أن أسمع بكاء الباكيات والنائحات تبعاً لعادة بلدي[٥٦]، فلم أسمع شيئاً من ذلك مطلقاً حتى وصلنا الجبّانة[٥٧]، وحالًا نودي للصلاة عليه فتقدم للصلاة عليه غلام شاب من الأشراف لا يتجاوز سنه السابعة عشر من السنين ، فلما سلم من الصلاة إنفتل وقابل القوم وقال : يا معاشر المسلمين ، لقد قَدِم على مولاه خالي السيد أحمد رحمه الله ، وقد عهد اليّ أن أصلي بالناس عليه ، وأن أطلب له منكم الدعاء والمسامحة وأنه يوصيكم جميعاً بتقوى الله ، ويوصيكم أهل البيت خاصة بالابتعاد عن مخالطة أضدادكم ويقول : اعلموا أن مدار التربية عليها ، وأنه لا يتخلف عن سلوك طريقة أهله الصالحين ، إلا من أهمل أبواه تربيته وتركاه يخالط أضداده ، وهذا ما عهد به إليّ أن أبلغكموه وسكت ، ثم قام آخر ، وقال : تمسكوا بهذه الوصية ، وعضوا عليها بالنواجد تفلحوا تفلحوا ، ثم حملت الجنازة وشيعت حتى المقبرة ، ومكثنا هناك ما شاء الله ، وتفرق الناس ، وكنت ملتزماً للشيخ بافضل ، فلما وقع نظري على مولاي الشريف تقدمت اليه ولثمت يده وتاخرت ، وتقدم اليه الشيخ بافضل وساره بكلام وتاخر وأمسك بيدي ومشينا معاً وقال لي : الآن انهب بك الى منزلي ، حتى وصلنا بيت الشيخ بافضل وكانت بيوت بلدة تريم لاطئة بالأرض مبنية بالتراب المخلوط بالتبن[٥٨]، فدخلنا بيت الشيخ بافضل ، وجلسنا فابتدرني الشيخ بافضل بقوله : أهلًا بك وسهلًا كيف رأيت البلد ؟ فقلت : رأيت أهلها أهل البيت كما وصفهم والدي وفوق ذلك ، وهل لهم طريقة مخصوصة بهم في سلوكهم ومدونة في كتبهم ؟ فقال لي : إن طريقتهم الكتاب والسنة وتطبيق العلم على العمل ، وطريقتهم مدونة في أعمالهم وأفعالهم ويربون أولادهم باحتفاظهم بهم في بيوتهم ويعلمونهم بافعالهم قبل أقوالهم ، ومعلومكم أنهم في بيوتهم مشغولون دائماً بربهم حتى من يخدمهم كانوا على غاية من الصلاح والاستقامة ، وربما منعوا أولادهم من الذهاب الى حضور مجالس المدرسين الذين هم على غاية من الاستقامة والكمال ، خوفاً عليهم من لقاء بعض أضدادهم حين الذهاب والإياب في الطريق ، فيسترقون من طباعهم . هكذا بلغت بهم المحافظة على تربية أولادهم لانهم علموا حقّ العِلْم ما في المخالطة من الخير والشر ، وأنت سترى بعينك ما يؤيد ما قاله والدكم ، وقلته لكم ، ونحن ـ والحمد لله ـ بينهم وفي بركتهم ونسال الله أن يرزقنا كمال الأدب المرضيّ عند الله معهم ، فإن الأدب المعلول لا يفيد صاحبه أبداً بل ربما عاد عليه بالضرر ، وهنا دخل علينا غلام معه القهوة فوضعها بيننا وذهب ، فتناولها الشيخ وجعلها في آنية صغيرة من خزف وناولني منها إناءً واحداً ، وهنا قلت للشيخ : من أين يجلب اليكم البن ؟ فقال : من اليمن ، فقلت له : لعل ما تحتاجون اليه كذلك ياتيكم من اليمن ، فقال : لا ! وإنما هي القهوة فقط من اليمن ، وأغلب ما نحتاج اليه إنما هو من[٥٩] بلادنا إلا إبر الخياطة ومواسي الحلاقة وكحل العيون فياتينا به الحجاج مع رجوعهم من الحج ، فقلت له : وهذه الثياب تنسجونها هنا ؟ فقال : نعم وتزيد عن الحاجة فيذهب بها التجار الى اليمن فيبيعونها هناك معاوضةً بالبُن ، فقلت له : وأيّ ضريبةٍ تتعاملون بها في أخذكم وعطائكم ؟ فقال : إن أكثر المعاملة هنا إنما هو بالحنطة الحمراء والحنطة البيضاء والتمر ، وتوجد هنا ضريبة بالتعامل بها ولكنها قليلة جداً ولا توجد إلا عند بعض الناس مكتوب فيها لفظ الجلالة ، ويقال : إن مائة قطعة منها تساوي ريالًا واحداً في اليمن[٦٠] ، فقلت له : وكيف السبيل هنا الى تكسير الدينار ، فقال : لا وجود للدينار عندنا ولا نعرفه[٦١]. وعندها عاد الينا الغلام ووضع بيننا إناء فيه تمر ، وأكلنا منه ما تيسر ، وبعد ذلك قال لي الشيخ : أولى لك أن تنام قليلًا فإذا جاء الوقت أيقظتك ، فقلت له : أحسن الله اليك ، وخرج من عندي واضطجعت وغشيني النوم حتى عاد فايقظني فانتبهت وجلست وجلس هو أمامي ، وقال : قرب وقت الظهر فهل لك في الوضوء ؟ فقلت له : نعم ، فدلني على محله فتوضأت ، وعدت الى محلنا ، فقال لي الشيخ بافضل : ان الشريف الذي توفي وشيعنا جنازته اليوم كان إماماً للصلوات الخمس في مسجدٍ من مساجد آبائه ، وسيجتمع بعض الاشراف الآن في ذلك المسجد وينصِّبون غيره لتلك الوظيفة ، فهل تحب أن تحضر وترى ؟ فقلت له : نعم أحسن الله اليك ، فقال : بسم الله نذهب الى ذلك المسجد ، فخرجنا من البيت وتوجهنا الى المسجد ودخلناه والمؤذن يؤذن للظهر فيه ، وبعد أن فرغ من الآذان أخذنا في صلاة التحية والراتبة[٦٢]، وما فرغنا من ذلك إلا وقد اجتمعَ ناس كثيرون من الاشراف وغيرهم ، حتى اقيمت الصلاة وتقدم أحد الأشراف فصلى بالقوم الظهر ، ولما انقضت الصلاة وراتبتها والناس جلوس تكلم أحد الأشراف الشيوخ وقال :

رحم الله أخانا أحمد بن أبي بكر ، فلقد مضت عليه اثنتان وخمسون سنة وهو محافظ على الجماعة بهذا المسجد ، وكان هو الإمام كما عرفتموه ، وما عرف انه تاخر عن ذلك إلا لعذر شرعي ، جاءني مرة وقال : أكلتُ يوم الثالث عشر من أيام التشريق لحماً فشوش عليّ في باطني واستمر معي ذلك التشويش نحو أربعين يوماً ، فآليت بعد ذلك أن لا أذوق اللحم مطلقاً !! وهو كما عرفتموه على جانب عظيم من الزهد في الدنيا ، والصبر على الفقر مع نهاية العفة ، فكانت اخته الشريفة مريم لا تفارق الوضوء إلا بالنوم ، ولقد أُخْبِرْتُ بحضرة كثير من الشرائف[٦٣] اللاتي أتينها ضحوة هذا اليوم للتعزية به « أنَّ أخاها أحمد ما شبع قطُ اختياراً وكان لا يعرف النوم في شهر رمضان إلا بعد أن تطلع الشمس ويصلي صلاة الضحى ويستيقظ قبل الظهر فيتوضأ ويقرأ القرآن من أوله الى سورة يوسف قبل أن يؤذن للظهر » . وإنا قد اجتمعنا الآن هنا لتعيين واحد منكم يقوم بوظيفة الإمامة في هذا المسجد وفيكم الكفاية والأهلية ، فاشكروا الله على ذلك ، فأجابه أحد الحاضرين من الأشراف بقوله : ان المحافظين على صلاة الجماعة بهذا المسجد لا ينقصون عن خمسة وعشرين من ابنائكم وفيهم تسعة من العلماء العاملين المدرسين فعينوا

منهم من تحبون، فتكلم آخر وقال: لقد أحسنت يا جد[٦٤] عبدالله دفعتها عن نفسك وأنت تعلم أنك أحق بها من الجميع، وما زال القوم يتدافعون تلك الوظيفة حتى آل بهم الحال الى القرعة فاقترعوا، فخرجت القرعة على الشريف عبدالله الذي كان أول من دفعها عن نفسه فقبلها بلا استثناء ولا كلام، وبعد ذلك قرئت الفاتحة وختم المجلس بالدعاء وانفض الحاضرون وخرجنا من المسجد، ولقد كنت أظن أن لهذه الوظيفة أجرةً قياساً على ما في بلدنا[٦٥] وأخبرت الشيخ بافضل بذلك، وقلت له: ولكن أشراف تَرِيم هم أمة لانفسهم! فقال لي الشيخ بافضل: وكذلك يبعثون يوم القيامة أمةً لانفسهم! رزقنا الله الأدب الحقيقي معهم آمين! وهنا قلت للشيخ بافضل: من فضلكم أن تتركوني في أحد المساجد، وتمضوا لشانكم، فقال لي: أذهب بك الى مسجد فيه درس، وامكثْ به حتى أعود لك، ومشينا معاً حتى وصلنا الى المسجد، فقال لي: ادخل واجلس واسمع حتى أعود لك، فدخلت المسجد فرأيت حلقة الدرس فملت اليها وجلست فنظرت الى المتصدر، فإذا هو غلام لا يتجاوز الخامسة عشرة من السنين من عمره، ثم نظرت الى المريدين حوله، فإذا فيهم المراهق والكهل والشيخ، فعجبت ثم عدت فنظرت الى ذلك الفتى المتصدر فرأيت على رأسه عمامة بيضاء تضم تحتها اذنيه وعليه ثوب أبيض أيضاً واسعة أكمامه وفي مرفقيه رقعتان وفي منكبه الأيمن رقعة، وصدره بارز وأمامه شيخ كبير مهيب يقرأ ويسكت[٦٦]، فإذا سكت تحرك ذلك البحر الخضم، فقذف من مكنون جواهره ما لا سبيل الى التعبير عنه، وبعد ذلك بمدة يسيرة ختم المتصدر الدرس، وحضرت القهوة وأديرت على الحاضرين فشربوها إلا واحداً منهم تركها أمامه فلم يشربها، فقال له مَن بجنبه: اشرب القهوة، فقال: لا حاجة لي بها، فقال له: هل أنت صائم؟ قال: لا، فتكلم ذلك الفتى المتصدر وقال: إنه أشدكم محبةً للقهوة، وله أيام منها، وما تركها إلا لشدة توقانه اليها! وهنا دخل رجل من الأشراف ومعه غلام يمكن أنه في سابع سنة من عمره وصافح القوم وجلس، فقال الفتى المتصدر للرجل الداخل: خذ ذلك الإناء واشرب ما فيه من القهوة فإنها من نصيب هذا الغلام، ولعله ولدك، فقال: نعم، وقد جئنا به لتدعو له بالفتوح ليكون مثل مَن في سنه من أبنائكم وأبناء غيركم، وقد بذلنا جهدنا فيما يحبه ويفرح به لاجل أن يجتهد في طلب العلم والعمل ولكنه يحب اللعب! فقال ذلك الفتى لذلك الرجل: أنت دخلت ونحن نتكلم في واقعة حال القهوة، وأخبره بترك الشريف عُمَر للقهوة، قال: وهكذا كانت طريقة أجدادك وأجداد ولدك يفطمون أولادهم عن الشهوات من مثل الذي يحبه ولدك ويفرح به[٦٧]، وقد أخبرني والدي رحمه الله قال: كنت ـ وأنا صغير ـ أحب القهوة وأعوّل عليها خصوصاً بعد رجوعي صباحاً من المسجد الى البيت، وذات يوم من الأيام عدت الى البيت على عادتي فوجدت أمي في مصلاها على عادتها فجئت اليها وسلمت عليها فالتفتت مبتسمة فسررت سروراً عظيماً بابتسامها في وجهي ثم قالت

لي: يا عبد القهوة، هذا اليوم، ربنا ما أعطانا قهوة، ولو انك تركت شرب القهوة لكان أحسن! فقلت لها: انما أشرب القهوة لما أجده منها من النشاط يوم أشربها ولا كذلك يوم لا أشربها! قال: فقالت لي أمي: يا ولدي حفظك الله أنت في العاشرة من السنين من عمرك والنشاط ضروري لك فان رضيت على نفسك أن تكون عبداً لشهواتك فقد خالفت طريقة أهلك! وأعرضت عني، وقامت وأحرمت بصلاة الضحى، قال والدي: فرأيت اختي خارج باب المنزل تشير عليّ بالمجيء اليها فقمت اليها وقبلت يدها، وأخذتني الى مجلسٍ آخر وجلست وأجلستني أمامها وقالت قد سمعت ما قلته لامي، ومِن متى عرفت هذا الكلام، فيا أخي تحقق أن المرشد لك الى هذا الكلام مع أمك هو شيطان الشهوات فتبْ الى الله تعالى من ذنبك كما تبت من القهقهة فيما مضى، قال والدي: فسكت فمدت يدها وصافحتني، وقالت لي: هيا تب الى الله على يدي بصدق، وأنت منشرح الخاطر، قال والدي، فتبت الى الله، ثم قالت لي أختي، متع الله لي بها، اعلم يا أخي أن من لا توبة له فلا حال له ولا مقام له، وهي بمثابة الارض للبناء، ومن لا أرض له لا بناء له، ولا سبيل الى التقرب الى الحضرة القدسية الالهية إلا بالتخلي أولًا من الأوصاف الذميمة لانها نجاسات معنوية، كما لا يمكن التقرب بالعبادات مع النجاسات الصورية، وأنت يا أخي أنقش كلامي هذا على قلبك، ثم ناولتني قطعة من خبز الذُرة، ثم قال والدي: فصممت العزم على كمال الاقتداء بجدي الأعظم ﷺ، ولم أعرف من بعد ذلك اني شبعت، بل قد عصبت الحجر على بطني من الجوع مراراً! وسكتَ والدي، فقلت له: إنك قلت إن عمتي مريم، قالت لك: كما تبت من القهقهة، وما هي توبة القهقهة؟ فقال لي والدي: بارك الله فيك، كنت وأنا ابن ثمان سنين رأيت ما يضحكني فضحكت وقهقهت، وكانت أمي تراني وتسمعني، وأختي حاضرة أيضاً وغيرها، فلم نشعر إلا بأمي تكفكف دموعها، ثم قالت: أصبحت بيوتنا ـ أهل البيت النبوي الآن ـ كالأسواق محل الغفلات، فما هذه القهقهة يا ولدي بارك الله فيك. فابتدرتني أختي، متع الله لي بحياتها، فاستتابتْني، وبعد أن إستتابتْني من هذه وأنا في الثامنة من السنين، ومن تلك وأنا في العاشرة فكلُّ من في البيت حتى الخدامين كانوا يوبخونني ويقولون لي: عسى توبة مقبولة، ثم ان ذلك الفتى المتصدر حفظه الله التفت الى ذلك الرجل وقال له: على مَن قرأ القرآن ولدك؟ فقال له على المعلم عبدالله، فسكت الفتى طويلًا ثم قال: ان عيون الصبيان هي الباب الواسع النافع في تربيتهم وتعليمهم فما يتعلمونه بالمشاهدة من أفعال آبائهم وأمهاتهم، وممن يختلطون بهم في صغرهم ينتفعون به انتفاعاً عظيماً أو يتضررون به ضرراً عظيماً ولا كذلك ما يتعلمونه بآذانهم، فما يشاهدونه بعيونهم يقتدون به، ولو مِن غير قصد، وإذا نظرت الى أفعال الصبيان وحركاتهم رأيتهم يتمثلون بمن حولهم ويحاكونهم فيما يرونه صادراً منهم إنْ خيراً فخير وإنْ شراً فشر، وصلاح أولادنا إذا نحن تحققنا ما تقدم متوقف على ما يشاهدونه في



بيتهم الذي تربوا فيه ، وصفاتنا تظهر في أولادنا فما يرون[٦٨] أولادنا من أفعالنا اليومية المختلفة تؤثر فيهم تأثيراً بليغاً وتبقى معهم زمناً طويلاً ، وإذا مات آباؤهم فقد ينسون تعاليمهم التي سمعوها بآذانهم ولا ينسون أبداً ما شاهدوه بأعينهم ، والاباء والمعلمون وإن كان فيهم همة ، ومثلهم غيرهم ، فهم لا يقدرون على تحريك الناس للعمل ما لم يكونوا هم من أهل العمل ! لأن الناس يميلون بطبعهم الى الاقتداء بمن حولهم في العوائد والاخلاق

وان لم يقصدوا ذلك[٦٩]، وان كل من ينظر الى شخص فاسد لا يلبث أن يكتسب منه شيئاً يضر به ! فكيف بمن يخالط المفسدين ، وهذه الشريفة : نور بنت محمد فانها لم تدخل بيتاً من البيوت ولا ترددت على أهله إلا طهرت ما فيه وصيرت كلام أهله جليلاً وقويماً ، وما ذلك إلا لاستقامتها التي جعلت لها هذا التأثير في القلوب ، وما نشاهده اليوم من الصلاح في أكثر إخواننا أهل البيت ، ومثله ما نسمعه فيمن تقدم عن آبائنا ، فإنما حصل لهم من مشاهدة آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم الصالحين الذين تربوا بينهم ، وأنت يا أخي إحفظ ولدك من مخالطة من لا يليق به ولا بنا مخالطته حتى ولو كانوا من أبناء جنسنا الغافلين آباؤهم ، المغرورين بنسبهم والمشغولين بما لا يفيدهم ، ونحن داعون لك ولولدك ، وسكت قليلاً ، وحالاً أذن المؤذن لصلاة العصر وأنا معجب غاية الإعجاب من ذلك الفتى الشاب المتجلبب بوقار الشيوخ وجلالهم وهيبتهم ، ولكن ما يصدر من أهل البيت النبوي لا ينكر ولا يستنكر ! ولعمري إنهم أهل لذلك وفوق ذلك، إني سمعت ذلك الكلام ولم أتمكن من حفظه ، ولكن رأيت حينئذ من يكتبه من الحاضرين فطلبت منه أن يستنسخ لي منه نسخة وما قصر فكتب لي ذلك أحسن الله اليه آمين ، وبعدما تقدم أقيمت صلاة العصر ، وما تقدم غير ذلك الفتى الشريف حفظه الله وأمد في أوقاته آمين ، وبعد أن إنقضت صلاة العصر تقدم المأمومون يلثمون أكف الشريف ، فتأخرت أنا حتى لم يبق غيري فتقدمت اليه وجثوت بين ركبتيه وأخذت يده ولثمتها وقلت له : غريب زائر طالب دعاكم ، فقال : بارك الله فينا وفيك ، فقلت له : وقدمت الى هذه البلد مع مولاي الشريف محمد من الحج ، فقال : هنيئاً لكم ، ونطلب منك أن تستغفر لنا وتقرأ الفاتحة[٧٠] بنيّة قبول استغفارك لنا ، فامتثلت أمره ، واستغفرت الله لي وله وقرأت الفاتحة ، ثم قلت له : اطلب منكم ، أن توصوني وتجيزوني[٧١] وتدعوا لي ، فسكت ثم قال : أوصيك ونفسي بتقوى الله ، والاجازة فاطلبوها من الوالد محمد ، وأما الدعاء فنحن داعون لكم بخير ، ونهض من محله وخرج من المسجد ، وخرجت خلفه من المسجد ، وذهبت أمشي خطوات وأنا أشكر الله تعالى على منه عليّ بزيارة أشراف هذه البلد أهل البيت الطاهر وترحمت على والدي مراراً فوق عادتي إذ لولاه لما اهتديت الى هؤلاء الأولياء الحقيقيين ، وقبل المغرب بمدة وجيزة عاد اليّ الشيخ بافضل ، ولما التقيت به قال : حضرتم الدرس ؟ فقلت له : نعم أحسن الله اليكم ، وأطلب منكم أن تعينوني على

محل آوي اليه ولو بأجرة ، فقال : هكذا تحبون ؟ فقلت له : نعم ، فقال لي : تحبونه من الآن ؟ فقلت له : نعم ، فقال : ممكن إن شاء الله تعالى فهيّا بنا اليه ، فتوجهنا معاً حتى أوصلني الى دويرة ، فنادى : يا سالم ! فخرج اليه رجل قد أنهكت قواه الشيخوخة ، وبعد مصافحته . قال له الشيخ بافضل : هذا غريب جاء هنا للزيارة ويطلب منكم تؤونه مدة أيام ، فحالاً قال الشيخ : قبول ، هذا هو هنا ينزل ، وبيت الخلاء قريب ، ولكن إن فتح الله علينا بشيء اقتسمناه معه ، فقلت له : لا بأس ، وحالاً دخلت وجلس الشيوخ رب المنزل ، واستأذن الشيخ بافضل وانصرف ، فقال لي رب المنزل ، هو أنت الغريب جئت مع الحبيب محمد بن أحمد ، فقلت له : نعم ، فقال وحججت هذه السنة ؟ فقلت له : نعم ، فقال استغفر لنا واقرأ لنا الفاتحة فامتثلت وبعد ذلك قال لي : حج مبرور وسعي مشكور وذنب مغفور وتجارة لن تبور ، يا لها من سعادة الحج ومصاحبة محمد بن أحمد الى تريم ، إعذر ! إعذر ابغينا لك عشاء ، ولكن ما معنا إلا تُميرة ويا ننتظر[٧٢] الى ما بعد العشاء إن فتح الله بشيء وإلا بانقدم الموجود ! فقلت له : عندي ما قد فتح الله عليّ به ، ولكن إئتوني بمن يذهب الى السوق ، فقال لي الشائب[٧٣]: الوقت مغرب وغداً يكون خير ، ولعلك متوضيء فقلت له : نعم ، فقام مِنْ عندي وذهب ثم عاد وقال: هيا نريد المسجد فخرجنا معاً وجئنا الى المسجد وصلينا المغرب واعتكفنا حتى العشاء ، ورجعنا الى البيت وجيء بالعشاء ، فقال الشائب : فتح الله ، ناس عندهم عُرْس وارسلوا لنا عشاء جزاهم الله خيراً فوُضع بيننا في قصعة ، فاكلناه فقال الشائب : هذا عندنا يسمونه الخمير[٧٤]، وبعد أن اكتفينا منه قال الشائب : الآن وقت النوم ، ولعلك تعبان ، والمقام ، متى تقوم من النوم لأجل أن ننبهك فقلت له : متى قمت أنت من نومك فايقظني ، فقال لي : أنا شيبة ولا يجيئني النوم إلا قليل يا ولدي ، فقلت له : أيقظني قبل طلوع الفجر بقليل ، ثم قال لي عرفت مكان الخلا ؟ فقلت له : نعم وكان مصباحنا تلك الليلة القمر إذ هي ليلة الرابع عشر من شهر محرم الحرام[٧٥]، واضطجعت ونمت براحة حتى كان الوقت ، فايقظني وتوضأت ، وخرجنا معاً الى المسجد واعتكفت حتى اذن الفجر وتقدم الإمام وصلى بنا صلاة طويلة جداً قرأ في الاولى سورة الحديد ،

وفي الثانية بالحاقة[٧٦]، وانتهت الصلاة ، وبعدها بمدة طويلة اصطف المريدون أمامه يدرس لهم في (منهاج العابدين)[٧٧]، وكلهم كأنما على رؤوسهم الطير ، لا يتكلمون ولا يسألون بل رأيتهم والهيبة قد أحدقت بهم والسكينة قد غشيتهم وانتهى الدرس قبل طلوع الشمس بزمن يسير وبقينا في المسجد الى أن طلعت الشمس ثم صلينا صلاة الإشراق[٧٨]، ورجعت الى البيت ، وجلس الشائب وجلست فقلت له : من ذلك الإمام الذي صلى بنا الصبح ؟ فقال هو الشيخ باعبيد من كبار الجم الزيان[٧٩] ممن يقومون الليل في ركعة واحدة ، فقلت له : أين يسكن ؟ قال : هو جاري فقلت له : هل يمكنني أن أزوره ؟ فقال يمكنك وخصوصاً الآن ، فقلت له : الآن أزوره ، فنادى رجلاً جاره فاتى فقال له إذهب بهذا الرجل الى يا عبيد ، فذهبت

معه واستأذن فدخلنا ورجع الرجل ، أما أنا فسلمت عليه وصافحته وجلست ، فقال : من أين ؟ فقلت له : غريب جئت الى هنا مع الحاج[80] الشريف محمد بن أحمد وصاحبه بافضل ، وقصدي زيارة أهل هذه البلد وأنتم في الجملة ، وقد صليت الصبح خلفكم اليوم ، قال : وهل حضرتم الدرس ؟ فقلت : نعم ، فقال لي ان الطلبة الذين رأيتهم في الدرس هم من أهل بيت الرسالة ، وما نتكلم به معهم ، فإنما هو منهم أخذناه ، وعنهم رويناه ، ثم إني أخبرته بما سمعته من والدي في وصفهم الى آخره ، فقال لي : في أي عام زار والدكم هذه الديار ؟ فقلت له : منذ ثلاث وثلاثين سنة : عام اثنتين وثلاثين وثمانمائة[81]، فقال لي : هل دوّن رحلته ؟

فقلت له : نعم لأني أذكر انه كان يذكرها ويحيل عليها إلا اني لم أتجاسر عليه مدة حياته بالسؤال عنها لما له من الهيبة وبعد موته فتشت عليها في كتبه فلم أظفر بها . انتهى ما وجد من هذه الرحلة والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

الهوامش والمصادر

(١) العباس بن ابراهيم : الاعلام ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ ، تحقيق : عبدالوهاب ابن منصور ، المطبعة الملكية ١٩٧٦ .

(٢) علي سالم سعيد بكير : رجل وكتاب : رحلة في سبيل العلم من المغرب الى حضرموت . مجلة الحكمة ـ لسان حال اتحاد الادباء والكتاب اليمنيين ـ العدد ١٢٣ ـ السنة الخامسة عشر ، يوليه ١٩٨٥ ، صفحة ١٤ ـ ٢٠ ، صنعاء ، عدن .

(٣) تقع مريمة على مقربة من مدينة سيؤن ، وقد انشئت على مقربة من ضريحه مدرسة للمعلمين ، حيث ترحمت عليه صباح عودتي من حضرموت ، الاحد ١٣ / ٩ / ١٩٩٢ .

(٤) رددت الزميلة فاطمة خليل في اطروحتها : (الرحلة في الادب المغربي) لنيل دكتوراه الدولة بجامعة محمد الخامس ١٤٠٧ ـ ١٤٠٨ = ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ ، رددت بعض ما كان صدر عن تلك الرحلة في بعض المجلات ... وقد قام بتحقيقها أخيراً د. أمين توفيق الطيبي بعد أن رأى ، ولا أدري كيف وافقته زوجته على ذلك ؟! رأى إسقاط مقدمة من ٢٧ صفحة يتناول فيها المؤلف سيرة الامام ادريس الاكبر وخروجه الى المغرب أيام هارون الرشيد وقيام الادارسة في المغرب وانتسابه اليهم ... كما يتناول فيها المؤلف الحديث عن القبائل في بلاد أنقاد كاولاد طلحة بن يعقوب والاحلاف .. كانت هذه المعلومات في نظرنا لا تقل ـ أن لم تفق ـ أهمية عن رحلة ابن عابد الذي كان يقصد ـ دون شك ـ الى اثراء معلوماتنا عن الدولة الادريسية التي أسدت الى المغرب معروفاً لا يجعله الاستاذ الطيبي والسيدة زوجته ، هذا الى إسقاط أسماء أقارب ابن عابد ..! وقد نشر هذا التحقيق والتقديم والتعليق من لدن الجمعية المغربية للتاليف والترجمة والنشر ، الدار البيضاء ، رقم الايداع القانوني ٨١٥ ـ ١٩٨٨ .

(٥) نشر هذا البحث من قبل مركز الدراسات والبحوث اليمني بصنعاء بمجلته عام ١٤٠٠ ـ ١٩٨٠ . كما نشر بمجلة (البحث العلمي) ذو الحجة ١٤٠١ ـ تشرين الثاني ١٩٨١ .

(٦) اغتنم هذه الفرصة لاجدد شكري لكل الذين ساعدوني لتحقيق هذه الامنية بعد انتهاء أعمال الندوة الدولية لحماية المخطوطات اليمنية ، التي انعقدت بدار المخطوطات ، صنعاء القديمة ، جوار الجامع الكبير فيما بين ٧ / ٩ ايلول ١٩٩٢ .. وأخص بالذكر سعادة الاستاذ بافقيه ، رئيس الهيأة العامة للآثار والمتاحف والمخطوطات ولنائبه الدكتور يوسف فضل .. والسيد الوكيل وكذا لرفيقي في الرحلة الاستاذ عبدالمالك المقحفي .

ولا بد لي أن أذكر بتقدير كبير عناية الزميل الاستاذ أحمد الادريسي سفير صاحب الجلالة ، والسيدة الفضلى حرمه .

(٧) عبدالله محمد الحبشي : مصادر الفكر العربي الاسلامي في اليمن ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء (بدون تاريخ) ، ص ٣٦٥ ـ ٣٦٦ .

(٨) عبدالله بن أبي بكر بن عبدالرحمن السقاف الشهير بالعيدروس ، يكنى أبو محمد ، ترجم له الشلي باعلوي في الجزء الاول من كتابه المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، ولد في العشر الاول من ذي الحجة سنة احدى عشر وثمانمائة ، وقد سماه أبوه عبدالله ولقبه العيدروس بمعنى الاسد ، قال بَخرق : الاصل العيتروس فلعل التاء أبدلت دالاً لاتحاد المخرج ... نشا بمدينة تريم ... ومات والده فقام بتربيته عمه عمر المحضار وزوجه بابنته ... أخذ عن عمه علوماً عديدة كما تفقه على جماعة منهم الشيخ عبدالله باغُشير ، وسمع الحديث على خلائق لا يحصون بحضرموت واليمن والحجاز ... قدم نقيباً على بني علوي وهو ابن خمس وعشرين سنة ... كان ملازماً لقراءة إحياء علوم الدين ومطالعته حتى كاد أن يحفظه ...

محمد بن أبي بكر الشلي باعلوي ، المشرع الروي في مناقب السادة الكرام آل أبي علوي ، طبعة اولى ، عام ١٣١٩ ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٩) لم أقف على ترجمة للشيخ جمال الدين هذا فيما أتوفر عليه من مصادر يمنية ، فهل القصد الى جمال الدين محمد بن أحمد بن عبدالله ابن محمد الشهير بابن علي بافضل المولود بتريم والذي تفقه وتصدر للتدريس بعدن حيث أدركه أجله عام ٩٠٣ = ١٤٩٨ ؟

اعلام الزركلي ... ٦ ، ص ٢٣٢ .

(١٠) علي بن محمد بن حسين الحبْشي (ت ١٣٣٣ = ١٩١٥) من وجوه العلويين في حضرموت له نظم ، وقد ذكر في تاريخ الشعراء الحضرميين .. هذا ويضبط الشيخ عبدالحي الكتاني الحِبْشي بكسر الحاء وسكون الباء وقال : ان الحبشي لقب لاحد بيوتات بني علوي اليمنيين ، وكذا وردت بالكسر في كتاب نيل الوطر .. وكذا سمعت الزميل عبدالله الحبشي ينطق اسمه ويصحح ذلك لمن ينطقها بفتح الحاء والباء ، وقد تردد ذكر علي الحبشي هذا عند الكتاني في كتابه (فهرس الفهارس والاثبات) ص ١٣٠ ـ ٥٠٣ ـ ٦٩٤ ـ انظر هذا الكتاب ـ طبعة دار الغرب الاسلامي باعتناء د. احسان عباس ، بيروت ، لبنان سنة ١٤٠٢ = ١٩٨٢ .

(١١) يعتبر العطاس هذا من أعيان العلويين في حضرموت .. جمع مكتبة لا نظير لها في بلاده ، وكان مسموع الكلمة عند القبائل ، وعلى يده عقد الصلح بين الدولة القعيطية والقبائل الدوعنية ، وقد أملى « وصايا » و « إجازات » ورسالة في « القبائل الحضرمية » . قف على كتاب : عقود الالماس بمناقب الامام أحمد بن حسن العطاس .
راجع عبدالله الحبشي : مصادر الفكر العربي الاسلامي في اليمن ، ص ٤٦٢ .

(١٢) حذام : امرأة في الجاهلية من العرب اليمانية يضرب بها المثل في حدة البصر وصدق الخبر وتلقب بزرقاء اليمامة ، فيها قيل : أبصر من زرقاء اليمامة ، وقال الشاعر :

إذا قالت حذام فصدقوها
فإن القول ما قالت حذام !

(١٣) الجزء الثاني ص ٦٣ ، مكتبة الارشاد بجدة ، طبعة بيروت .

(١٤) المصدر السابق .

(١٥) لقد جرفتني هذه المعلومة في بداية الامر الى التفكير في أن المقصد باحد الاشراف الى السيد الطاهر بن عبدالله الادريسي الذي نجد له ذكراً في المصادر اليمنية التي تحدثت عن أيام محمد المؤيد بالله ، وهي تقول بالحرف :
وصل في أيامه ، رضوان الله عليه ، السيد الجليل العالم النبيل الطاهر بن عبدالله الادريسي من بلاد المغرب الاقصى ... فاستدعى مولانا الحسن عليه السلام وصوله الى مقامه وعرف ما عنده من فنون العلم وانه من أهل بيت مُلك ... فقربه كثيراً وأقام عنده أياماً ... وأرسله مع بعض خواصه الى الامام عليه السلام ... وقد أعطاه الامام عطاءً جزيلًا وكتب معه دعوة الى المغرب الاقصى . ت.د.م. جزء ٨ ص ٨٠ .

(١٦) محمد بن هاشم بن عبدالرحمن ... بن طاهر العلوي ، ولد بحضرموت وتلقى علومه على جماعة من شيوخ تريم ... وقد رحل الى جاوة عام ١٣٢٥ = ١٩٠٧ وساهم في تحرير صحفها ، وتزعم البعثة المرسلة الى مصر سنة ١٣٤٤ = ١٩٢٥ ثم عاد الى مسقط رأسه وأحيى بعض الندوات والجمعيات ، وقد أدركه أجله سنة ١٣٨٠ = ١٩٦١ .
عبدالله الحبشي : مصادر الفكر العربي الاسلامي في اليمن صفحة ٤٦٩ .

(١٧) ترجم الشيخ خير الدين الزركلي لابن شهاب هذا في الاعلام : ج ٢ ، ص ٢١٤ ، قال عنه : انه جاهر بآراء كان ينشرها في الصحف المصرية كالمؤيد والمنار والصحف الحضرمية كمجلة الامام ، وجريدة الاصلاح الصادرة في سنغافورة ، ويقول عنه : انه كان عنيفاً في جدله كثير النقد للشيوخ فكثر خصومه من أهل تريم وغيرها ... ويضيف الزركلي الى هذه المعلومات ان كتابه « الانصاف بين الصلة والاتحاف » نسبه الى أحمد فهيم صدقي الدسوقي الازهري ، ويختم ترجمته بان له أيضاً كتاب (الرقية الشافية في الرد على النصائح الكافية) وان له شعراً في بعضه جودة ... انظر تاريخ الشعراء الحضرميين لعبدالله بن محمد بن عمر السقاف ، جزء ٥ ، صفحة ٢٣ / ٣٢ .
علي سالم سعيد بكير : رجل وكتاب ، رحلة في سبيل العلم الى حضرموت ، مجلة الحكمة ، عدد ١٢٣ ، تموز ١٩٨٥ .

(١٨) هذا عالم من سوس انتقل الى مكة فكان من أعلام المدرسين بها وليس هو الشيخ محمد بن محمد بن سليمان الجزولي مؤلف دلائل الخيرات المتوفى عام ٨٦٩ . ابن القاضي : لقط الفرائد من لفاظة حقق الموائد ، تحقيق محمد حجي ـ مطبوعات دار المغرب للتاليف والترجمة والنشر ، الرباط ١٣٩٦ = ١٩٧٦ .
العباس بن ابراهيم ، الاعلام بمن حل مراكش وأغمات من الاعلام ، ج ٥ ، ص ٤٠ ، الطبعة الملكية ، الرباط ١٩٧٦ .

(١٩) المعيار ، الجزء ٦ ص ٤١٩ ، نشر وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية المغربية ١٤٠١ = ١٩٩١ م .

(٢٠) انظر ، ج ١ من المعيار ص ٢٢١ ج ٧ ص ١٣٨ ـ ١٣٩ ـ ٤٧٣ ـ ٤٧٨ .

(٢١) د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، ج ٧ ، ص ٢٣٣ ، رقم الايداع القانوني ٢٥ / ١٩٨٦ ـ مطابع فضالة المحمدية ، المغرب .

(٢٢) ترجم أبو سالم العياشي في رحلته (٢ ، ٨٩) لشيخه السيد محمد باعلي نقلًا عن (بهجة المفاخر في معرفة النسب العالي الفاخر) فقال : محمد بن علوي بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن أبي بكر بن عبدالرحمن بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن علي بن محمد بن علوي بن عبدالله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب والزهراء البتول بنت المصطفى ﷺ ـ ابن عابد : ملتقط الرحلة ...
وقد تولت المصادر المغربية الاخرى التاريخ لنسب العلويين الحسنيين د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، ج ٩ ، ص ١٠ .

(٢٣) من رسالة السلطان مولاي عبدالرحمن بتاريخ ١٤ ربيع الثاني ١٢٦٨ = ٦ شباط ١٨٥٢ : « وها نحن جعلنا ... للريال ذي المدفع عشرين أوقية وللذي لا مدفع فيه تسع عشرة أوقية وللبسيطة التي بالمدفع خمس أواق وللتي لا مدفع لها أربع أواق ...
الناصري : الاستقصا ، طبعة البيضاء ، ١٩٥٦ ، ج ٩ ، ص ٦٤ .
د. التازي : العملة ودور السكة بالمغرب ، مجلة اكاديمية ، المملكة المغربية ، عدد ٤ تشرين الثاني ١٩٨٧ .

(٢٤) وردت كلمة الاشرفي عند الربان المعروف شهاب الدين ابن ماجد في قصيدته الشفالية :

وكل ضرب الاشرفي منه
فلا تسل من بعد ذاك عنه

د. التازي : ابن ماجد والبرتغال : مجلة البحث العلمي ، عدد ٣٦ ، ١٩٨٦ .

(٢٥) علي الخزرجي : العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ، تصحيح محمد بن علي الاكوع الحوالي : مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، طبعة ثانية ١٩٨٣ .

(٢٦) اللكوك : جمع لك وقد تولى الرحالة المغربي ابن بطوطة تفسيرها عندما كان بمدينة سيوستان .. فقال : انها مائة الف دينار ، وبهذا يرتفع إشكال استاذنا محمد الاكوع في تحقيقه لقرة العيون لابن الديبع ، القسم الثاني ، ص ١١٦ ، تعليق ٤ ، مطبعة السعادة ، صنعاء .

(٢٧) وقفت في مكتبة الاحقاف على طبعة لابن بطوطة لم أقف عليها في

جهة من الجهات ! ويتعلق الامر بطبعة ثانية لرحلة ابن بطوطة تحت عام ١٣٢٢ = ١٩٠٤ على نفقة الشريف مولاي أحمد بن عبدالكريم القادري الحسني المغربي الفاسي (مطبعة التقدم ، شارع محمد علي بمصر) ، وكانت الطبعة الاولى بمطبعة وادي النيل ١٣٨٨ = ١٨٧١ . وقد طبع الشريف القادري هذا - على ذمته - كتباً اخرى بالمطبعة الحجرية بفاس : مختصر الشيخ خليل في الفقه المالكي وطبع عام ١٣٢٢ ، وكشف الاسرار عن علم الغبار للامام القلصادي ، طبع ٣١٨ .

(٢٨) د. التازي : الصلات التاريخية بين المغرب وعُمان ، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، آب ١٩٨١ .

(٢٩) د. التازي : ابن ماجد والبرتغال .. مجلة « البحث العلمي » العدد ٣٦ ، صفحة ٦٠ ، سنة ١٤٠٦ = ١٩٨٦ ، التعليق ٦٣ .

(٣٠) رحلة العياشي ٢ .

(٣١) في حديث أدلى به د. محمد الهاشمي التونسي لجريدة (المقطم) ١٣ / ١٤ ايلول ١٩٢٩ بمناسبة عودته من جاوة لبلاده تونس ، ذكر ان عدد الحضارمة الموجودين هناك يربو على ثلاثين ألف نسمة ، وقد وصفهم بالذكاء والنشاط والصبر ولو انه واخذ عليهم القطيعة فيما بينهم الخ ... والحديث يدل على ان هذا المغربي كان على صلةٍ قوية بمهاجرة حضرموت ..

- د. التازي : التاريخ الدبلوماسي للمغرب ، ج ٧ ، ص ٣١١ .

(٣٢) تَريم (بوزن أمير) تعتبر من أشهر المدن في اقليم حضرموت ، ويقول ياقوت : ان حضرموت اسم للناحية بجملتها ، ومدينتاها شبام وتريم ، دخلها الاسلام عندما عاد وفد حضرموت من عند النبي ﷺ في السنة العاشرة ، وكان أول عامل عليها هو زياد بن لبيد الذي كان يقيم تارة في ترين وتارة في شبام .

وفي أيام بني أمية دخلت تريم كغيرها تحت هيمنة الاباضية الى أن قامت أول دولة سُنّية : دولة آل راشد في مطلع القرن الخامس الهجري (مذهب الشافعي في الفقه ، ومذهب الاشعري في العقيدة) ... وتمضي هذه الدولة لتاتي بعدها دولة آل يماني التي أسسها مسعود بن يماني (ت ٦٤٨ = ١٢٥٠) وجعل مركزها في تريم ... ومن آل يماني انتقل الحكم الى الدولة الكثيرية الاولى في آخر القرن الثامن حيث استمروا ثلاثة قرون أو تزيد وفي عهد هذه الدولة يتحدث « المغربي » عن تريم التي كانت تعيش على انفراد من الدولة الحاكمة في بقية اليمن ... ومن آل كثير انتقل الحكم الى آل يافع قبل أن يعود الكثيريون مرة اخرى ... لتجري عجلة الزمن حتى تصل الى العهد الحاضر ...

(٣٣) هكذا في النسخ الاخرى عوض الطفولة ... وهو استعمال مطروق على نحو استعمال كلمة الشبابية .

(٣٤) ناحية كبيرة كانت تعرف باسم (الاحقاف) وتقدر مساحتها بنحو ١٢٠ الف ميل مربع ، وقيل : انها سميت كذلك لسبب ذكره بعض المؤرخين ، وذلك أن عامر بن قحطان أول من نزل الاحقاف فكان إذا حضر حرباً أكثر من القتل فصاروا يقولون عند حضوره : « حَضَرَ مَوْت » ! ثم صار ذلك لقباً عليه .. بينما جاء في اسطورة يونانية ان رائحة شجر اللبان الذكر التي اشتهرت بها منطقة حضرموت كانت مُميتة مما دعاهم الى اطلاق اسم (أرض الموت) على الوادي الذي تنبت فيه الشجرة التي تفرز اللبان ... تغلب عليها الحِمْيريون ... وبعد ظهور الاسلام تناولتها أيدي الخلفاء الراشدين ثم الدولتين الاموية والعباسية ... المقحفي : معجم البلدان والقبائل اليمنية ... دار الكلمة - صنعاء ١٤٠٦ = ١٩٨٥ .

(٣٥) البندر : كلمة فارسية (ج بنادر) المكان الذي ترسو عليه المراكب بالمرساة ، أو مدينة ساحلية يرأسها شاه بندر ، أي رئيس الميناء الذي يقوم بوظائف الشرطة والجمارك ، وهناك معنى آخر للبندر ، على سبيل المجاز : وهو القنصل الاجنبي الذي يتولى في أي ميناء معين حماية حقوق أبناء بلده ، والبندر استعمال غير معروف ببلاد المغرب ، وهو من الكلمات التي استعارها الاستعمال الاوربي من الفاظ البحر .. فالبرتغاليون يطلقون على الميناء (Bandel) على نحو استعارتهم لكلمة أمير البحر (Admiral) و... ناعة (Azcenal) وانجر (Anchar) وحبل (Cabl) وغراب (Alabus) و... (Carraca) ورأس بر (Rasbec) على الشاطىء الغربي لباب المندب وشحر (Cach) على الشاطىء الجنوبي للجزيرة وجوادر (Guadel) جزر عند سواحل الحجاز الغربية .

عن كتاب ثلاثة أزهار في معرفة البحار لاحمد بن ماجد . تحقيق ونشر ثيودور شوموفسكي ، ترجمة وتعليق : د. منير مرسي . كلية التربية ، جامعة عين شمس ١٩٦٩ ، القاهرة .

(٣٦) يقصد بالساعية ، السفينة لانها بالفعل ساعية بين ميناء وآخر ...

(٣٧) ميناء لحضرموت ، واليه ينسب اللُبان الشحري ، لانه يوسق منه ، وكثيراً ما تنسب البضاعات للموانىء التي شحنت منها أو نزلت بها على نحو ما نسمعه عن الهيل الذي يسميه المغاربة قاقلة نسبة الى الميناء الذي ياتي منه ، وعلى نحو القهوة اليمنية التي تسمى (مخا) لانها آتية من ميناء المخا (Mokha) ، والبخور الجاوي لكونه آتي من جاوة .

(٣٨) يلاحظ أن أهل الديار الحضرمية يلزمون الكنية الالف على لغة القصر فيقولون لبني حسن : باحسن ، ولبني حسين : باحسين ، ولبني علوي باعلوي - انظر المشرع الروي ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٣٩) كساء واسع يشتمل به ج شملات ، وأم شملة كنية عن الدنيا ...

(٤٠) يلح كاتب الرحلة على ترديد القهوة كمشروب لاهل اليمن الذين يقول شاعرهم :

إذا أنت لم تشرب على الصبح قهوةً
فيومك يوم لا يفارقه الكسل !

ومعلوم ان القهوة اليمنية التي كانت تشحن الى العالم من ميناء المخا (MOKHA) لم تكن معروفة آنذاك في المغرب ، وانما يعود ظهورها للقرن العاشر الهجري ، ويبدو ان هذه البداية كانت متعثرة قرابة القرنين ، فقد كتب ابو سالم العياشي (ت ١٠٩٠ - ١٦٧٩) في رحلته « ان أهل مصر يتكارمون بينهم بشراب البُن الذي يسمونه القهوة ، ونحن لا نعرفها وليست عندنا بطعام ولا دواء ولا شهوة ! » محمد المهناوي : القهوة بالمغرب ..

جريدة العلم ٢٩ / ٩ / ١٩٩١ .

(٤١) كلمة دخيلة من أصل مصري وليست باعجمية ، نوع من الحلوى على شكل سوار أو دملج ، وقد وردت في رحلة ابن بطوطة ، وهو بالمنطقة



عمان ...

(٤٢) القارب مال السفينة ... يعني القارب الذي هو ملك للسفينة وتابع لها ، وهذا تعبير جار على السنة المشارقة اليوم ، وبخاصة في جهات الخليج ، البيت مال الاستاذ ، أو البيت تَبَع الاستاذ ... وفي المغرب نستعمل تعبير ذيّاله ...

(٤٣) الزنبيل : ج زنابيل : الجراب أو الوعاء أو القفة ، انظر مادة (زبل) في كتب اللغة ...

(٤٤) يلاحظ انتباه كاتب الرحلة للحديث عن طعم الماء الذي يوجد في ميناء الشّحر ووصفه بالمالح ...

(٤٥) كأنّ كاتب الرحلة يريد القول : بانه نظراً لكون الشريف غير مقيم في البلد فإنه لا ينبغي له أن يؤم بالناس ...

(٤٦) يلاحظ هنا ان كاتب الرحلة ذكر المبلغ عدداً ونوعاً ووصفاً على ما اشرنا في التقديم ، واذا كان عدد قطع العملة ووصفها لا يهمنا فإن نوعها : (الريال) استوقفنا كثيراً ووجدنا فيه السر الذي يختفي وراءه القول الفصل حول رحلة المغربي الى تَريم وهو ما سنخصص له نهاية هذا التحليل .

(٤٧) مسجد بني أحمد هذا يحمل اليوم اسم مسجد بني علوي ، ويقول الاستاذ بكير : انه من اشهر مساجد تريم ... وهو المسجد العتيق فيها ، لان أول من أسسه السيد الامام علي بن علوي بعد انتقال السادة العلويين الى تريم أواخر القرن السادس ، وعندما تحدث الشلي صاحب « المشرع الروي » عن مساجد تريم المعروفة في وقته قال : وأعظم مساجدها بالاتفاق مسجد القوم المعروف قديماً بمسجد بني أحمد ، واشتهر بمسجد آل باعلوي في هذا الزمان ، ثم تضعضع بعض أركانه فرممه ولده ، ثم طال به الزمان ، فانتدب لعمارته الشيخ عمر المحضار ... والواقف اليوم على المسجد سيلاحظ ان قاعته الداخلية تتالف من ثلاثة بلاطات تاخذ من المحراب الذي تبدو عليه ملامح القدم ، وتنتهي الى صحن بسيط ، ويلاحظ انه لا توجد نوافذ لهذا المسجد وله بابان فقط ، أحدهما يوجد قبالة المحراب مباشرة والثاني دخلنا منه ، وهو من جهة القبلة ، وقد ألحقت بهذا المسجد قاعة مغلقة تتخذ جامعاً في وقت الشتاء يسمونها الحمّام ، وقد وجدتُ من مرافقه بيوتاً للوضوء والاستحمام ... — علي بن سالم بكير : الجامع في التاريخ الجامع ، ١٣٩٥ = ١٩٧٥ .

(٤٨) بين سنتي ٤٨٨ — ٤٩٨ = ١٠٩٦ — ١١٠٦ ألف الامام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي كتابه الشهير : إحياء علوم الدين أثناء إقامته في دمشق والقدس من ستة عشر جزءاً زاد عدد صفحاتها على ثلاثة آلاف صفحة ، فصل فيها آداب الطعام والزيارة والحج والسفر والصوم والتلاوة والنكاح والصحبة ، ومعاشرة الخلق ، وما يليق إذ وجد الانسان في مختلف الامكنة كالمساجد والاسواق والشوارع والحمامات وغيرها فجاء موسوعة كاملة عن آداب السلوك ، استشهد فيها بالسنة وتصرفات الصحابة وكبار الشخصيات الاسلامية في مختلف المناسبات المذكورة .

(٤٩) سيردِد صاحب الرحلة (الذرة) كمادة أساسية في المنطقة ، وقد تساءلت عن السر ، فقال لي بعض الزملاء بانها كانت أرخص من الزرع .. والذي أراه أن صاحب الرحلة كان يقتدي بالرحالة المغربي ابن بطوطة وهو يتحدث عن الطعام في تلك المنطقة ، فلقد ردد ذكر الذرة مرتين عندما كان في ظفار وفي عُمان ، وهما على مقربة من حضرموت ...

(٥٠) الخوذة : ما يجعنه المحارب على رأسه ليقيه ...

(٥١) القصد الى الشفع ...

(٥٢) هناك جثا يجثو ، وجثى يجثي : جلس على ركبتيه ...

(٥٣) باغُشير بضم الغين على التصغير كما هو في المَشرع الروى .

(٥٤) عم يتساءلون : سورة النبا رقم ٧٨ — وسورة إذا السماء انشقت : سورة الانشقاق رقم ٨٤ .

(٥٥) محمد بن عيسى الترمذي نسبة الى ترمذ .. أدركه أجله بمسقط رأسه ترمذ عام ٢٧٩ = ٨٩٢ من تصانيفه الجامع الكبير والشمائل النبوية والتاريخ والعلل في الحديث ...

(٥٦) هنا نجد أن كاتب الرحلة يقارن بين العادات في مدينة تَريم والعادة في بلاده المغرب ... وقد كان هذا مما شجعني على إرضاء زملائي في اليمن لاشتغل بالرحلة وحول مصداقية هذه المقارنة ، انظر التقديم ...

(٥٧) استعمال كلمة (الجبانة) بمعنى المقبرة مطروق في المغرب الأوسط والادنى .

(٥٨) لاطئة بالارض يعني ليست كبيوت مدينة شبام التي تتصاعد طباقاً طباقاً فوق بعضها حتى تصل الى نحو تسع طبقات تقل أو تزيد .

(٥٩) ينبغي أن نقف قليلاً لنعرف عن التنافس الذي كان يظهر احياناً بين حضرموت وبين غيرها من الجهات الاخرى في اليمن .. ان كلام كاتب الرحلة يؤخذ منه ذلك ، وهو ما يمكن أن نقرأه في كتب التاريخ اليمني من أمثال كتاب قرة العيون باخبار اليمن الميمون تاليف ابي الخيا عبدالرحمن بن علي الديبع الشيباني الزبيدي (القسم الثاني) تحقيق وتعليق محمد بن علي الاكوع الحوالي ، مطبعة السعادة ، الصفا ، ١٣٩٧ = ١٩٧٧ .

(٦٠) الحديث عن العملة هنا يذكرنا في الحديث السابق عنها عندما حدد صاحب الرحلة مبلغ الاجرة التي تدفع للذي ينوب عن غيره في الحج عدداً ونوعاً ووصفاً ... وهي القضية التي سنتناولها في خاتمة هذا التحليل .

(٦١) نتساءل هنا كيف يمكن قبول عدم وجود الدينار باليمن مع أن كتب التاريخ اليمني ما انفكت تردد ذكر الدينار كعملة على ذلك العهد .

(٦٢) الراتبة تعني نافلة غير تحية المسجد ، تؤدّى عند الاذان وقبل صلاة الفريضة ، نرى هذا في مساجد المشرق التابعة لبعض المذاهب ، والمعهود في المغرب الاكتفاء بتحية المسجد وصلاة الفريضة ...

(٦٣) يلاحظ جمع الشريفة على شرائف وليس على شريفات المعهود عندنا في المغرب .

(٦٤) الذي قرأناه يا جد عبدالله ، نداء للشخص بإسم حفيده وليس بابنه ... وقد يكون الاصل يا عبدالله وأقحمت كلمة (جد) ...

(٦٥) هنا أيضاً نجد ان كاتب الرحلة يقارن بين العادات في مدينة تريم والعادة في بلاده المغرب ، وكان هذا مما شجعني — كما أسلفت — على إرضاء زملائي في اليمن ... انظر التقديم ...

(٦٦) هذا ما نسميه في المغرب (الشارد) ويختاره الشيخ من عيون طلبته النابهين لانه يكون له بمثابة المساعد الامين يرشده — بادب — لما قد ينسى الحديث عنه في تقريره ، ويجيبه عما يسال عنه مما فات في

مجالس سابقة ... وقد سبقت الاشارة الى التعريف به في التقديم .

(٦٧) هذا يذكر في قول الامام البوصيري : والنفس كالطفل ان تهمله شب على حب الرضاع وان تفطمه ينفطم .

(٦٨) (فما يرون أولادنا) على لغة أكلوني البراغيث ... ولم يكن هذا أول استعمال ، لهذه اللغة في المصادر اليمنية المتعلقة بهذه الرحلة .

(٦٩) هذا كلام جيّد جداً بالنسبة لرجال التربية الذي يتوقون الى تكوين ناشئة صالحة ...

(٧٠) القصد الى سورة الفاتحة : وهي السورة الاولى من القرآن الكريم ...

(٧١) حرْصُ المغاربة على نيل الإجازة من غيرهم أمر معروف من قديم وقد ذكرنا في الخاتمة نموذجاً لهذا الحرص وضربنا مثلاً بابي سالم العياشي الذي استجاز الشيخ باعلوي الحضرمي ...

(٧٢) تركيب غريب من صاحب الرحلة على نحو التركيب بعده : (يانقدم) وقد جاءت غرابته من أنه يشبه التعبير السائد الآن في بعض البلاد العربية ، مصر مثلاً ، والذي يفيد معنى الاستقبال سننتظر .. سنقدم ... فهل هكذا أيضاً كانت صياغة الكلام في تَرِيم أثناء القرن التاسع ؟!

(٧٣) عبارة الشائب .. سمعتها في طرابلس (ليبيا) ، يطلقونها على الطاعن في السن وكانوا يقصدون بها الملك السابق ادريس السنوسي رحمه الله .

(٧٤) سألت بعض رفاقي في حضرموت ، عن القصد من الخصير ؟ وهل هو معروف اليوم ؟ فذكر لي انه طبيخ يشبه الهريسة المعروفة بالحجاز ... وأذكر بالمناسبة ان من بين الصحون التي تناولتها علاوة على بنت الصحن (نوع من الحلوى) هناك ما سمي لي بالحضرمية وهي عبارة عما نعرفه في المغرب بـ (البيصارة) وهي تعتمد على الفول المطحون وعليه غلالة من زيت الزيتون وكمون وفلفل وليمون ..

(٧٥) ليلة الرابع عشر من المحرم ٨٦٥ توافق ٣٠ تشرين الاول ١٤٦٠ فالوقت اذن وقت خريف ، ولا بد اننا سننتبه لكون التاريخ يناسب لمن غادر موسم الحج ، واتجه ـ عبر جدة نحو ميناء الشحر ...

(٧٦) سورة الحديد هي السورة رقم ٥٧ أما سورة الحاقة فتحمل رقم ٦٩ .

(٧٧) الاسم الكامل للتاليف : منهاج العابدين الى الجنة ، قيل انه آخر تاليف للامام أبي حامد الغزالي في التصوف .. معجم المطبوعات .

(٧٨) القصد الى صلاة الضحى

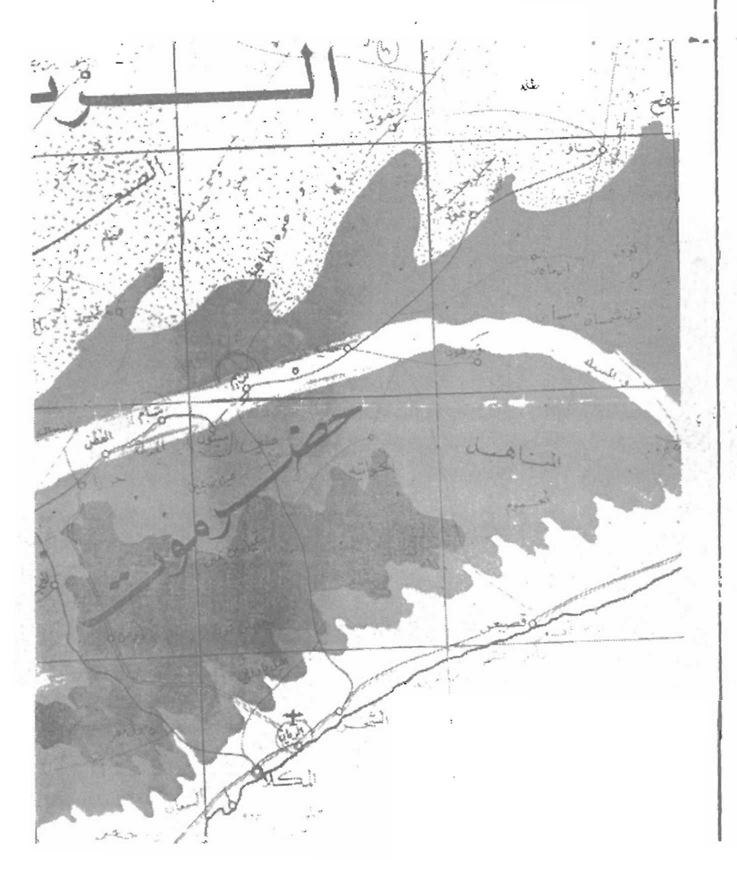
(٧٩) الزيان يعني الحسن ، يقال قمر زيان

(٨٠) لا ينبغي أن ننسى ان العادة في المغرب على أن يحمل الشريف لقب (الحاج) لان انتسابه لاهل البيت يغنيه عن هذا اللقب الذي يُعطي عادة لغير الاشراف .

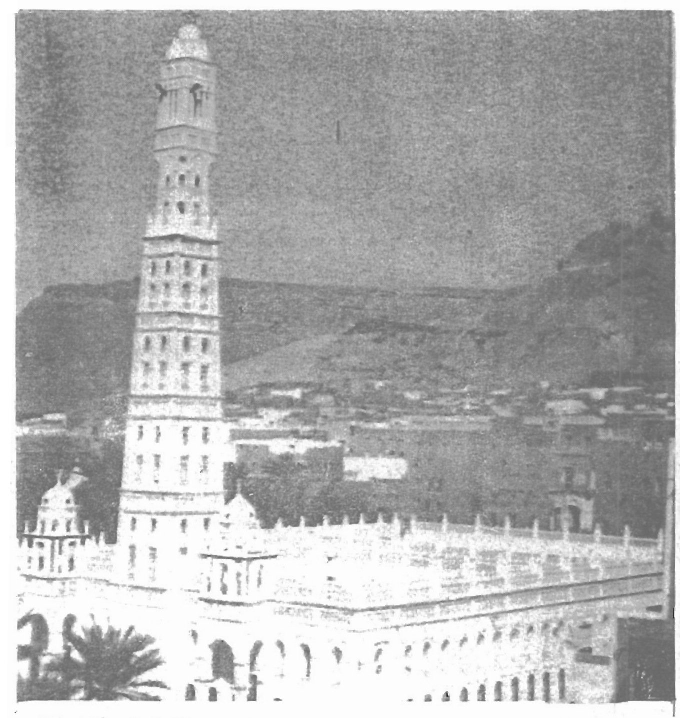
(٨١) يلاحظ التوثيق في ذكر تاريخ صاحب الرحلة ، وكذا في رحلة والده ، مع اعادة المعلومات التي ابتدأ بها ، والجدير بالذكر ان التاريخ الذي كُتب هنا بالكلمات كتب في نسخةٍ لاحقةٍ بالارقام الهندية .



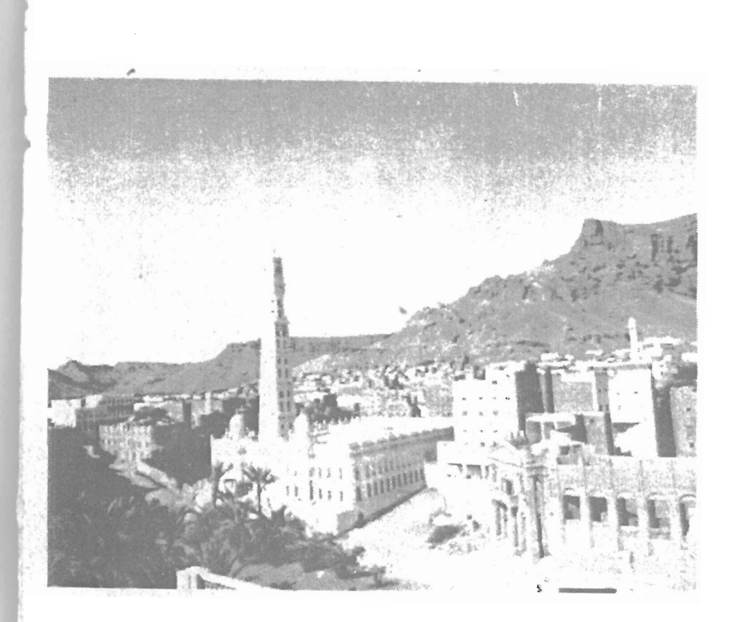
هنا تقع مدرسة الوسطى في مدينة سيئون حيث تكثر المساجد ، ومن أعظمها جامع العمودي نسبة الى اسرة تنحدر من عمود الدين .



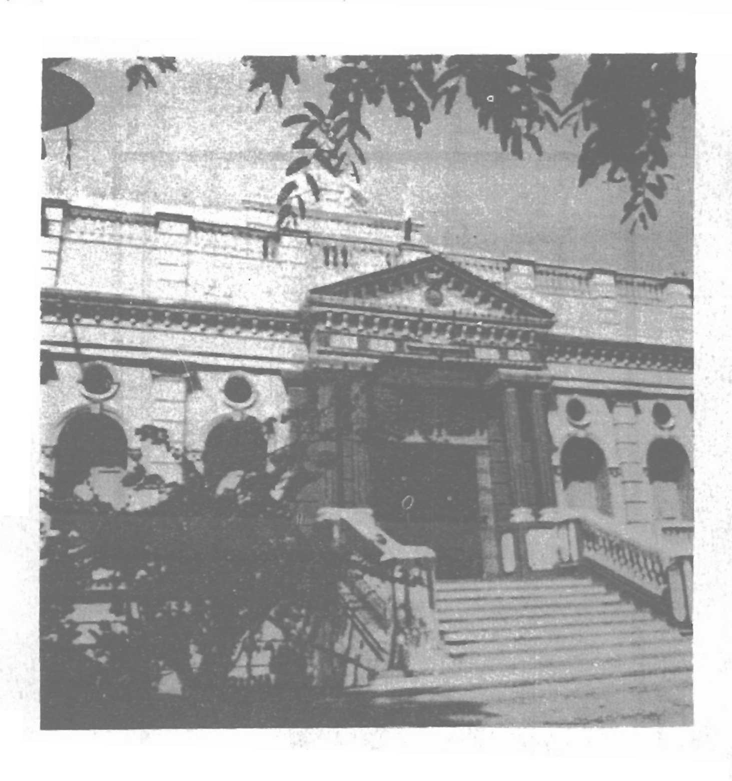
تظل المباني معبّرة عن الهوية اليمنية التي كانت مضرب المثل في الاصالة والحضارة : (لقد كان لسبأ في مساكنهم آية) .

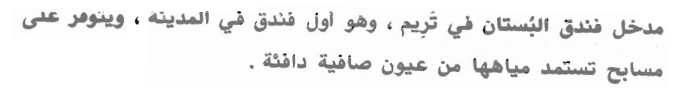


هذه مدينة تَريم ... على مقربة من هذا الجامع توجد مكتبة الاحقاف التي تحتضن آلاف المخطوطات التي تتناول سائر حقول المعرفة .



مُدينة تَريم التي تجر وراءها تاريخاً حافلاً بالاحداث والرجال ...





مدخل فندق البُستان في تَرِيم ، وهو أول فندق في المدينه ، ويتوفر على مسابح تستمد مياهها من عيون صافية دافئة .



على مقربة من تريم يقع قبر النبي هود عليه السلام ، ويقصدها الزوار عادة على الجمال ويحتفل بعودتهم للمدينة بطريقة خاصة .

بذل النحلة ، لمن يحب الناصحين الكرام الأجلة ،
(بذكر ما أودعه المغربي من شمائل تريم وأهلها في الرحلة

غلاف مخطوطة صنعاء التي أهديت لي يوم ٩ / ٩ / ١٩٩٢ ، ويلاحظ أنها تحمل هذا العنوان : (بذل النحلة ، لمن يحب الناصحين الكرام الأجلة بذكر ما أودعه المغربي من شمائل تريم وأهلها في الرحلة).



الريال كان المفتاح للوصول الى الحقيقة !

غلاف مخطوطة صنعاء التي أهديت لي يوم ٩ / ٩ / ١٩٩٢ ، ويلاحظ أنها تحمل هذا العنوان : (بذل النحلة ، لمن يحب الناصحين الكرام الأجلة بذكر ما أودعه المغربي من شمائل تَريم وأهلها في الرحلة) .

صورة من الورقة الاولى من رحلة « المغربي » عن مخطوطة مكتبة الاحقاف لمدينة تَريم

تواصيل من الاشراف العلويين بالمشرق عما توصلوا به من العاهل المغربي فى محرم الحرام ١١٩٥ .



احدى الوثائق الرسمية التي تعبّر عن صلة العلويين الحَسنيين في المغرب بالعلويين الحُسينيين في المشرق .
رسالة من ملك المغرب محمد بن عبدالله الى أولاد عمه هناك ، وهي بتاريخ ١٤ ذي الحجة .

جانب من مخطوطة (صلة الاهل) المحفوظة في مكتبة الاحقاف بمدينة تَريم ونجد فيها أن الرحلة قرئت مراراً عديدة على الإمام أحمد ابن حسن العطاس فايدها وأوصى بالتمسك بما فيها ... ومن كلامه رضي الله عنه قوله : لاحت لي بارقة في شان رحلة المغربي الى تَريم ..